عشق

في بلاد الجليد

عشق في بلاد الجليد

رواية

د. واكد شعلان

اسم الكتاب: عشق في بلاد الجليد (رواية).

المؤلف: د. واكد شعلان.

سنة الطباعة: 2015.

كمية الطباعة: 1000 نسخة.

الترقيم الدولي: ISBN 978-9933-22-079-2

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سورية ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: 00963 11 5627060

00963 11 5637060

تلفاكس: 00963 11 5632860

ص. ب: 259 جرمانا

www.darrislan.com

الفصل الأول

لا أدري لماذا قررت أن أكتب هذه الأحداث، مع أنني كنت مجرد شخص يراقب ذلك الرجل لمدةٍ تزيد عن السنتين، و هو يدخل هذا النادي مرتين في كل أسبوع، وكل مرة كان يترك انطباعاً لا يُنسى لدى الحضور، و ها أنا الآن وبعد مرور أكثر من خمس سنوات قد قررت أن أكتب قصته، ربما لأنها ستبقى محفورة في ذهني إلى آخر يوم في حياتي .

كان (السعيد) - كما كان الجميع ينادونه - شاباً وسيماً، مرحاً، زد على ذلك صاحب ثروة، كانت تأتي به كل يوم سيارة فخمة يقودها سائق قاربت سنوات عمره الستين سنة، كان هذا السائق صامتاً طوال الوقت، وكنت أشعر من عينيه أنها تخبئ شيئاً ما، كان ينتظر (السعيد) طوال الليل و هو جالسٌ في السيارة، لا يتحدث إلى أحد، فقط يمسك كتاباً يقرأ به طوال الوقت مستغرقاً، حتى إذ به يصحو على صرخات سيده المخمور والذي لا تفارقه السعادة طوال الوقت .

وفي إحدى الليالي من ليالي روسيا الباردة، والتي بلغت فيها الحرارة رقماً قياسياً وصل إلى الثلاثين تحت الصفر، مما أدى إلى مشاكل في التدفئة في نادي (دي آند نايت) مما أجبر (ناتالي) صاحبة النادي أن تأتي إلى النادي، وقد كانت قَلَّ ما تأتي إلى المكان، و فحوى المشكلة التي دفعت صاحبة النادي القدوم إليه هو حدوث انقطاع للتيار الكهربائي في تلك الليلة، وكانت تلك الليلة استثنائية فهي ليلة عيد الحب، ومن الضروري جداً أن تكون أمور النادي على ما يرام في هذا اليوم، لما تحمله الليلة من أرباح و اهتمام من أهالي المدينة .

دخل حراس السيدة (ناتالي) وأغلقوا أبواب المطعم لتعبر إلى مكتبها، كانت لها مكانة رفيعة في المدينة حيث أن والدها كان وزيراً في الحكومة واستمر في منصبه سنين طويلة، وكان من حوله حُسَّاد وأعداء شتى، وكان هذا ما يزيد من خشيته على ابنته (نتالي).

(نتالي) بعد وقت قصير ستبلغ الخامسة والعشرين من العمر، ومع أن والدها كان مهتماً بها طوال الوقت، ويحبها حباً يكاد يصل إلى درجة الجنون، إلا أنها كانت

تعيسة طول الوقت ولا تُرى البسمة على شفتيها.
في الحقيقة أن (نتالي) كانت جميلة جداً، إلا أنها كانت مزاجية جداً، و غالباً ما كانت تغضب و تصرخ في وجه من تراه حتى لأتفه الأسباب!
يقال إن والدها كان قد انفصل عن أمها منذ أن كانت صغيرة، وقد استطاع أن يأخذها من أمها بعد جهود حثيثة، وكانت (نتالي) حينها في الثالثة من العمر، كما يقال أيضاً إن أباها أصيب بحادثة لم يستطع الإنجاب بعدها مما جعله مصراً على التمسك بابنته (نتالي).
في الواقع قام بحرمان أمها منها، حيث استطاع أن ينسج لزوجته فخاً من خلال تجنيده لبعض الأشخاص عديمي الضمير، استطاع من خلالهم إقناع القاضي بأن زوجته غير صالحة لتربية الطفلة وأن لها بعض السوابق في تسويق وتسهيل الدعارة في المنطقة!
طبعاً أن أم (نتالي) لم تكن بها هذه الصفات بتاتاً، وكانت كما يقولون امرأةً عطوفةً وحنونةً، محبة لزوجها وابنتها، و لولا تلك الليلة المشؤومة يوم أتت في الصباح إلى بيتها الصيفي صدفة، بشكل غير متوقع من زوجها، فإذ

بها تجده في أحضان امرأة أخرى على سريرها .
هذه الحادثة جعلتها لا تغفر له رغم كل اعتذاراته لها وكلامه المعسول، افترقا لهذا السبب، فأخذت تعمل لتربي ابنتها (نتالي)، ولم تكن تقبل أن تأخذ منه المال رغم كل محاولاته لذلك .
هذا ما جعله يحقد عليها ويصر أن يحرمها من ابنتها لأن القوانين كانت كلها في صالحها، ولا يستطيع أن يحصل على (نتالي) إلا من خلال هذه الطريقة الظالمة.
حيث يقال أنه منعها من رؤية ابنتها، و حيث أنه امتلك منزلاً في فرنسا فقد سكن في هذا البيت مع ابنته، حيث ترعرعت (نتالي) هناك ونسيت أمها كما توقع والدها.
أما الأم فقد أصبحت راهبة، وبقيت في الدير حتى وافتها المنية بعد سبع سنوات بسبب جلطة دماغية أودت بحياتها بعيداً عن ابنتها .
يقال أن (نتالي) أتت إلى جنازة أمها، ومنذ ذلك الحين لم تعد تُرى البسمة على وجهها.
أخيراً استطاعت (نتالي) عبر فنيي الطوارئ أن تحل مشكلة التدفئة في النادي، حيث أوصل الفنيون كبلاً

كهربائياً من مولد كهرباء منقول أتت به فرق الطوارئ ليجدوا حلاً مؤقتاً للمشكلة، والتي لولا مركز والدها لما كانت أن تحل بهذه السرعة .

طلبت (نتالي) من سائقها والذي كان اسمه (غريغوري) أن يسكب لها كأساً من النبيذ لتجلس وتشاهد الاحتفال من مكتبها عبر شاشتها، لم تلاحظ (نتالي) بوكيه الورد الذي كان قد وضع على مكتبها وكتب عليه اسم (أندريه)، هذا الشاب الذي كان يعمل مديراً للنادي، كما وكان والده صديقاً حميماً لوالد (نتالي)، و قد كان يحب نتالي جداً ولكن نتالي لم تكن تعيره أي اهتمام، حتى أنها رأت بوكيه الورد الذي كتب عليه (أندريه) كلمات رائعة، و لكنها لم تكترث له، ولم تجاوب عليه حتى بكلمة مجاملة .

وضعت نتالي كأس النبيذ أمامها ولم تبالي بأحد، أخذت تتأمل الحفل عبر الشاشة، لاحظت (نتالي) أن هناك رجلاً يحجز الأغاني بشكل مستمر وحده، ويهديها لحبيبته، ولا يترك فرصةً لأحد لكي يحجز أغنيةً و يهديها لحبيبته .

فنادت (نتالي) مستفسرة عن هذا الرجل الذي لا يترك

فرصةً لأحد لكي يهدي حبيبته أغنية، فهل هو الوحيد الذي يعرف الحب، لما لا يترك فرصة لباقي الأحبة لكي يهدوا بعضهم الأغنيات .

علمت نتالي بعد سؤالها أن هذا الرجل لا يملك أية حبيبة، ولكنه دائماً يحجز الأغاني بمناسبة عيد ميلاد ابنه، وكل يوم يكون لديه عيد ميلاد لابنه، وأن أكبر نسبة من الذين يترددون إلى هذا النادي يترددون لأجل هذا الرجل، و ذلك منذ أكثر من سنتين، كما و أنهم يطلقون عليه اسم (السعيد) لأن البسمة لا تكاد تفارق وجهه .

سمعت (نتالي) هذه المعلومات عن الرجل ولكنها لم تكترث كثيراً، بل اتجهت الى بيتها وطلبت من الموظفين أن لا يزعجوها، واذا حدث أي طارئ فليتوجهوا إلى (أندريه) لكي يحل أية مشكلة تواجههم .

فقال لها أحد الموظفين:

-عفواً سيدتي أن (أندريه) ليس هنا، فلقد توجه الى أحد الأشخاص ليوصل له هدية بأوامر من السيد والدكِ .

فقالت (نتالي):

-حسنا ، عندما يعود (أندريه) أخبروه أن لا يزعجني الليلة.

الفصل الثاني:

كان (غريغوري) يعمل سائقاً عند (نتالي) منذ مدة ليست بالقصيرة، وكان يخشى عليها كثيراً ويحبها، رغم معاملتها القاسية له، كان يعرف أنها دائماً ترسم على وجهها لوحة من الحزن والغضب، وأنها دائماً مزاجية الاطباع ولا تتكلم مع أحد أي أحاديث جانبية ألا للضرورة القصوى.

حدث لـ(غريغوري) ذات مرة أنه دخل دورة المياه فصادف ذلك الرجل العجوز الغريب الأطوار، إلى درجة أن أكثر الناس كانوا يعتقدون أنه أخرس، حتى (غريغوري) اعتقد ذلك لولا أنه يومها ألقى التحية على الرجل فعلم من رده أنه ليس بأخرس، أراد (غريغوري) أن يفتح معه حديثاً ليثرثر معه عن العاصفة الثلجية التي تضرب البلاد، التفت (غريغوري) حوله فلم يجده، فشعر أن هذا الرجل يخبئ شيئاً خطيراً وراءه، أخذ (غريغوري) يدعو الرب أن لا يكون وراء هذا الرجل شيء يضر بمصلحة سيدته (نتالي) لأنه حقاً كان يحبها، بغض النظر عن الطريقة القاسية و

المليئة بالاستهزاء التي كانت تعامله (نتالي) بها، كان (غريغوري) يقول دائماً: لولا سيدته (نتالي) لما كانت زوجته قد أنجبت طفلهما .

يتذكر (غريغوري) دائماً ما حدث معه ذات يوم مع سيدته (نتالي)، دخل (غريغوري) يومها مكتب السيدة (نتالي) والدمع في عينيه، سألته:

- ما بك؟ و لما هذا الدمع في عينيك ؟

كان كبريائه لا يسمح له أن يخبرها قصته لولا أنها قد هددته بالطرد من عمله إذا لم يخبرها، وكان هو بأمس الحاجة إلى العمل، فأخبرها أن زوجته على فراش الولادة في المشفى، وهناك صعوبة شديدة في ولادتها مما سيؤدي لخطرٍ على حياتها، وأخبره الأطباء أنها بحاجة إلى عملية جراحية وهذا سيكلفه مبلغ عشرة آلاف دولار وهو لا يملك منها ولا حتى دولار واحد، و ما فاقم الموقف أن مشاكل زوجته الجسدية قد لا تسمح لها سوى أن تنجب مولوداً واحداً.

وما أن سمعت (نتالي) قصته حتى قالت له:

- لا تقلق، سأتوجه أنا وأنت مباشرة إلى المشفى لنحل لك

هذه المشكلة .

وبالفعل توجهت (نتالي) بصحبة (غريغوري) إلى المشفى ودفعت كل التكاليف، وقالت للزوجين أن تكاليف المشفى هدية لهما بمناسبة مولودهما الجديد.

بكت زوجة (غريغوري) حينها وقالت لها :

-يا سيدتي هل تسمحين لي أن اسمي ابنتي على اسمكِ ؟

فقالت(نتالي) :

-عذراً ، ولكنني أفضل أن أختار لكم اسمها...

واختارت (نتالي) اسم الطفلة وكان الاسم (إلينا) وعلم (غريغوري) بعدها بمدة أن هذا الاسم كان اسم والدة (نتالي) المتوفاة .

خرج (غريغوري) من دورة المياه وتوجه الى المكتب في النادي فرأى (أندريه) قد وصل من مهمته التي أوكله بها والد (نتالي)، نظر (أندريه) إلى بوكيه الورد فرآه لم يزل على حاله ، فسأل:

-هل السيدة (نتالي) لم تأتي إلى المكتب اليوم؟ فإنني أرى الورد ما زال على حاله.

فقال له:

- أنني نسيت أن أخبرها أنك وضعت لها الورد.

لم يود أن يقول له أن (نتالي) لم تكترث لأمره حتى لا يجرح مشاعره.

و حيث أن (نتالي) كانت تأتي الى النادي مرة واحدة في الأسبوع، هذا إذا كانت (نتالي) في البلد ، لأن أغلب أيامها كانت تقضيها خارج روسيا ، وكان هناك شائعات حول أن لها حبيب إيطالي ينحدر من عائلة عريقة في جنوب إيطاليا .

كان (غريغوري) يتمنى أن يأتي هذا الحبيب إذا كان موجوداً بالفعل حتى ينزع هذا اليأس من وجه (نتالي) الجميلة، لأن هذا الذي يدعى (أندريه) لو نظر المرء إلى وجهه لزاد اليأس والبؤس في داخله بدلاً من أن يشعر بالفرح و السعادة.

قال له (أندريه):

-حسناً ، أذهب إلى الصندوق واجلب لي ما جُمع من مال لهذا اليوم.

توجه إلى القاعة التي يوجد فيها الصندوق، فسمع لماحاً كلمات الرجل الذي يدعونه (السعيد) و هو يقول:

-يا رفاق يقولون أن هذه القاعة ستغلق بعد عشرة دقائق، فاسمحوا لي أن استغل مرة أخرى هذه المناسبة، وأوزع على الحاضرين كؤوس الشمبانيا، وأن ترفعوا الكؤوس بصحة ولدي في عيد ميلاده .

ضحك الجميع، ورفعوا الكأس وسأل أحدهم (غريغوري):

- ما هو اسم ابنه؟ هذه المرة العشرين التي أشرب بها بصحة ابنه ولم أعلم ما هو اسمه إلى هذه اللحظة .

فأجابه (غريغوري):

-عفواً يا سيدي أنا أيضاً لا أعلم ما هو اسم ابنه، فهذا لا يعنيني كثيراً .

ذهب الى موظف الصندوق ليطلب منه المال الذي تجمع في صندوق النادي لتلك الليلة، فقال له موظف المحاسبة أن ينتظر قليلاً حتى يأتي (السعيد) ويكمل الحساب، فهذه المرة الخامسة التي يوزع فيها الشمبانيا على الحاضرين، حقاً أنه مجنون، قال له المحاسب، أتعلم أنه لغاية هذه الساعة قد وزع أكثر من مائتي كأس شمبانيا.

فما كان من (غريغوري) إلا أن انتظر بعض الوقت حتى دخل هذا الرجل غريب الأطوار وطلب الحساب وقام بدفع

حسابه كاملاً و قد وصل الى أكثر من ثلاثة آلاف دولار، وخرج الرجل من النادي مبتسماً وكانت هذه المرة الثانية منذ سنتين والتي يراه (غريغوري) فيها عن قرب، اعتقد أنه قد يكون مسؤولاً كبيراً في إحدى الوزارات، ولكنه استغرب لماذا والد (نتالي) لا يعرفه وهو على علم ودراية بكل أهالي المدينة المهمين وأصحاب النفوذ و المال .

كان في ذهنه دائماً خوفٌ كبيرٌ على سيدته (نتالي) ولكن مركز والدها وسلطته كانت تزيل منه جزءاً من قلقه عليها، ولكن الحيرة ازدادت في ذهنه تجاه هذا الرجل غريب الأطوار، وبدأ كل يوم يحاول التقرب منه، ولكن كل محاولاته لكشف غموضه بائت بالفشل ولم يستطع أن يحصل على أية معلومة تتعلق به.

الفصل الثالث:

يقطع مدينتنا الجميلة (سانت بطرسبورغ) نهر النيفا الخالد، فهو يقطع المدينة بطول يزيد على السبعين كيلومتر، و هناك ما يزيد على مئة و أحد عشر جسراً على هذا النهر، بني أقدمها في أواسط القرن الثامن عشر، وما يميز هذه المدينة عن غيرها أنها في منتصف الليل تُقطع إلى أجزاء، حيث تُرفع هذه الجسور بطريقة فنية ميكانيكية في قمة المهارة والإبداع، حيث يتم تحويل مجرى المياه الى مسننات عملاقة تدفع هذه الجسور الى الأعلى فتسمح للسفن والقوارب بالعبور عبر المدينة و هذه الجسور تُعدُّ من أهم معالم المدينة السياحية و ما زالت تجلب السياح من كل بلاد العالم إلى مدينتنا، و التي أطلق عليها اسم المدينة التي لا تنام .

كان بعض الشبان عندما يريدون أن يقضوا الليلة خارج بيوتهم للهو واللعب أو لغاية أخرى، يتصلون بذويهم ويقولون لهم: لقد رُفعت الجسور ولم يعد بالإمكان أن أعود الى البيت حتى الصباح.

وهذا ما حصل مع (كاتيوشا) و (أنطون) اللذان تعرفا على بعضهما، و تبادلا الإعجاب منذ اللحظة الأولى، وبقيا يمشيان طوال الليل على ضفاف نهر النيفا حتى بزوغ الصباح، فكانا تارةً يتكلمان عن معالم المدينة، وتارةً يتباريان في الشِّعر، وتارةً أُخرى في الفكاهة واللهو، كانت (كاتيا) تنظر إلى (أنطون) وتبتسم، وتسأل نفسها: ماذا وجد قلبي في هذا الشاب الشقي الذي ظل يمشي خلفي أكثر من ساعة ويلهو معي حتى أنساني نفسي ولم ألحق موعد رفع الجسور .

كانت (كاتيا) بنت الثامنة عشرة قد أتت من الريف لتسكن مع خالتها في منطقة (البراسفيشينيا) وهذا الاسم يعني (التنوير) ولتدخل جامعة العلاقات الدولية .

أخذت (كاتيا) تسأل نفسها: هل وقعت بين أنياب ذئبٍ من ذئاب المدينة؟ ولكنها في آخر اللقاء تواعدت مع (أنطون) أن تراه يوم السبت القادم، أي بعد أسبوع من لقائهم الأول حين يكون يوم عطلة، لأنها بغير هذا اليوم لن تستطيع الخروج من بيت خالتها التي لن ترى النوم طوال تلك الليلة وهي تنتظرها، حتى أنها اتصلت بأمها وأخبرتها أن ابنتها

لم تعد الى البيت حتى الآن، مما خلق حالة من الهلع في كل القرية التي تقطن فيها أم (كاتيا).

كان أهالي القرية التي تقطن فيها أم كاتيا يحبونها ويحبون و يحترمون أمها ، كانوا يخشون على هذه الفتاة والتي تربت في بيت جدتها العجوز وأمها الكادحة، و كانت العائلة لا تملك سوى بقرة يأخذون منها الحليب وكلبٍ لحراستهم من لصوص الليل، وقطةٍ تلاعب (كاتيوشا).

كانت (كاتيا) ذلك الملاك الذي أتت به أمها قبل أقل من عقدين من الزمن، بعد حادثةٍ مؤلمة أدت لوفاة زوجها و الذي كان ضابطاً في الشرطة يحرس جدران الساحة الحمراء في مدينة موسكو، عندما نالت منه رصاصة الغدر في أحداث التسعينيات المؤلمة.

.وصلت الأم مع ابنتها (كاتيا) الى قرية صغيرة لا يسكنها سوى حوالى 35شخص من المسنين موزعين على 27 بيتاً من الخشب، لا يدفئهم سوى الحطب المندلع في مواقدهم، حيث انقطع التيار الكهربائي عن هذه القرى البعيدة منذ أن انحل الاتحاد السوفييتي وتعطلت بنيته التحتية.

كذلك خسرت أم كاتيا عملها في المطعم الذي كانت تعمل به، بعد أن الغوا المطاعم الشعبية والتي كانت تديرها الدولة، ليفتتحوا مكانها مطاعم زعموا أنها أكثر صحة ولذة للمواطن، فحولوا المطعم الذي كانت تعمل به الى صالة ماكدونالدز للمأكولات السريعة، و مما يثير السخرية أن تسعين بالمائة من مكونات مأكولات ماكدونالدز مواد كيميائية ضارة.

بقيت الأم وحيدة تصارع الحياة، تعمل وتربي ابنتها، في البداية كانت تضع ابنتها كل يوم في حضانة الأطفال دون سن الثالثة، والتي كانوا يطلقون عليها في روسيا اسم (الياسلي) و تأتي لتأخذها في المساء، كان هذا قبل أن يغلقوها ويفتتح مكانها شركة فرنسية تبيع الزهور الاصطناعية، فلم يعد أمام أم (كاتيوشا) إلا أن تعود الى تلك القرية التي بها أمها العجوز لتكمل معها ما تبقى من حياتها .

ترعرعت تلك الفتاة في هذه القرية، و ما إن أضحت تمشي حتى أصبحت حفيدةً لجميع أهالي القرية، فلا يستطيع أحد أن يمضي نهاره دون أن يرى (كاتيوشا)، كان أكثر

أهالي القرية يصنعون لها التيجان من ورد الربيع، فكانت تبدل أكاليل الورد أكثر من سبع مرات في اليوم لشدة ما تنال من اهتمام أهالي القرية .

وبعد أن كبرت وأصبحت تذهب لوحدها الى المدرسة كانت تحضر معها العديد من احتياجات أهالي القرية من دكان كانت بجانب مدرستها ، كانت (كاتيوشا) فتاة جميلة رقيقة محبة لكل الناس .

كان في قريتهم رجلٌ عجوز، قضى نصف عمره في السجن حيث أدين بجريمة قتل، وكان جميع أهالي القرية مستاؤون منه ولا يحبونه ويخافون منه، كان هذا الرجل يسكن وحيداً ولا يتكلم مع أحد، .وذات يوم رأته (كاتيوشا) مريضاً ويطلب المساعدة ولا أحد من أهالي القرية يرغب بمساعدته، فما كان من (كاتيوشا) إلا أن ذهبت الى أمها وقالت لها :

-يا أمي أن هذا الجد مريضٌ وبحاجة الى المساعدة، أرجوك دعنا نساعده.

وما كان من أمها الا أن لبت رغبة ابنتها (كاتيوشا)، وبكل حذر أجلسته أمام البيت وأحضرت له كأساً من

السماغون[1] مع الفلفل الأسود، وقطعة خبز أسود مع السالا[2] والثوم، وكانت هذه طريقة شعبية لعلاج الوهن و الضعف في روسيا.

أصبحت (كاتيوشا) تحضر العجوز كل يوم عطلة الى بيتهم حتى وفاته بعد حوالى ستة أشهر، فقامت والدة (كاتيوشا) وأهالي القرية بكل ما يلزم من اجراءات لدفنه بشكل لائق، هذه القصة البسيطة إنما تدل على شجاعة وطيبة (كاتيوشا) .

أنهت (كاتيوشا) المرحلة الثانوية بتفوق كبير، وحصلت على منحة مجانية من الدولة لدراسة الحقوق، تطلبت المنحة فراقاً مؤقتاً بين (كاتيوشا) وأمها، و التي أرسلتها الى خالتها في المدينة وبقيت هي في القرية منتظرة ابنتها (كاتيوشا) أن تعود إليها وهي تحمل إجازةً في الحقوق الدولية كما كانت تتمنى.

حملت (كاتيوشا)حقيبتها وخرجت من بيتها الريفي الجميل رغم بساطته، و بعد أن ودعت كل أهالي القرية

---

[1] مشروب كحولي يصنع في البيوت في روسيا (الناشر).
[2] قطعة من ذهن الخنزير المقدد (الناشر).

وكلبها وقطتها توجهت الى المدينة إلى بيت خالتها لتكمل دراستها في المجال الذي تحبه و هو الحقوق .

عادت (كاتيوشا) إلى بيت خالتها بعدما أمضت الليل و هي تمشي و تتسامر مع هذا الشاب الذي يدعى (أنطون) كما سمى نفسه لها، هرعت خالتها تفتح الباب وضمتها وأخذت تسألها:

-أين كنت يا بنيتي هل حدث لكِ مكروه لا سمح اللّه؟

-لا يا خالتي لم يحدث لي شيء، فقط كنت أتعرف على المدينة فلم ألحق موعد رفع الجسور، فاضطررت للبقاء على الضفة الثانية حتى الصباح، هذا كل شيء .

-إن أمك قد علمت بغيابك، وهي منشغلة جداً عليكِ، اتصلي بها وأخبريها أنكِ بخير.

أتصلت (كاتيوشا) بأمها وسمعت بكاء أمها ومن حولها عدد من أهالي القرية، فقالت لها:

- يا أمي لا تقلقي، أنا فقط لم ألحق موعد رفع الجسور في المدينة، فاضطررت للبقاء على الضفة الأخرى حتى الصباح، و عندئذ تعرفت على شابٍ رافقني و بقي معي يسليني.

فقالت الأم:

-يا ابنتي أرجوكِ، أنا أتحمل بعدكِ عني من أجل أن أراكِ تحملين إجازة جامعية، أرجوكِ لا تلهي نفسكِ بأمورٍ قد يكون بها أذىً لكِ، أرجوكِ يا ابنتي.

-يا أمي، لا تقلقي علي، فأنا أدرك تماماً ماذا أفعل، و لن أسمح لأية ظروف أو لأي شخص أن يمنعني من إتمام دراستي الجامعية .

إن خالة (كاتيوشا) البالغة من العمر حدود الخمسين هي في الواقع ابنة خالة أم (كاتيوشا) ولكن جرت العادة في روسيا أن أي قرابة تعتبر بمثابة قرابة الأخت أو الأخ .

إن الخالة (دانيلئيدا ايفانوفنا) أو كما تسميها (كاتيوشا) (تيوتا دينلة) و التي كانت تعمل منذ أكثر من عشر سنوات في نادي (الدي آند نايت) التابع للسيدة (نتالي) في قسم الاستقبال الخاص باستلام المعاطف أو ما يطلق عليه في روسيا (غارديروب)، قد كانت امرأة ناضجة ومتفهمة للأمور، و لكن ولكثرة ما شاهدته و سمعته من قصص وحكايات في هذا النادي فقد كانت تخاف جداً من أن تقع (كاتيوشا) بين أنياب أحد شبان بل قل ذئاب المدينة،

لذلك فقد أمنت لها عملاً في نادي (الدي آند نايت) أمام عينيها في قسم الـ(غارديروب). كانت (دانيلئيدا ايفانوفنا) في الواقع تُحذر كل فتاة تدخل إلى هذا النادي حتى أن بعض زملائها في النادي حذروها من أن يسمعها (أندريه) فيطردها من العمل.

كثيراً ما كانت (دانيلئيدا ايفانوفنا) تسر لـ(غريغوري) قائلة:

-من الأسهل علي أن آكل من المزابل في الشوارع، على أن أصمت حين أرى فتاة تذهب لأنياب أحد الذئاب ولا أحذرها، صحيح أن الرب لم يرزقني بأولاد، ولكنني أشعر أن هؤلاء كلهم أولادي.

كما أنها استطاعت أن تقنع (أندريه) أن يقيم في النادي حفلات تعارف، واستطاعت من خلال اختلاطها الكثيف بالناس أيضاً أن تقنع الكثير من الفتيات بالانضمام إلى الحفلات التي كانت تقام تحت عنوان (تعارفوا كي تتزوجوا) فكان هذا النادي صاحب الفضل بأن يوفق ويجمع بين أكثر من مائة وخمسين عائلة أقيمت مراسم زواجهم في نادي (الدي آند نايت).

عادت (كاتيوشا) إلى فراشها بعد مكالمة أحست بأنها مملة مع أمها ونساء قريتها، كانت تشعر بحاجة لكي تنفرد في غرفتها، فتفترش فراشها وتنظر إلى السقف سائلة نفسها: ما الذي جرى لها، وماذا فعله (أنطون) بها؟

ارتمت (كاتيوشا) في سريرها وكأنها قفزت في بحيرةٍ من مياهٍ دافئة، يغطيها شرشف حريري، وبين أذرعها وسادة من ريش النعام، ثم نظرت إلى الحائط فرأت صورة لإحدى مشاهير المطربات و دون قصدٍ منها أخذت شفتاها تردد أغنية لتلك المطربة تقول كلمات مطلعها : أنت لي وحدي أنت لي فقط أنت .

كانت تغني بصوتٍ خافت، لا تكاد أذناها تسمع كلماتها، ويداها تحضنان الوسادة وكأنها لا تريد أن تتركها، سابحةً في أحلامٍ راودتها لأول مرة، لولا أن أعادتها خالتها إلى الواقع و هي تناديها لتناول العشاء .

تناولت (كاتيوشا) كأس الشاي الساخن وكان الصقيع قد أثر في يديها، وأرادت أن تدفئهما قليلاً، فإذا بها تشرد مجدداً.

لاحظت خالتها أنها ليست على ما يرام فسألتها:

-إنني و بسبب طول مدة عملي في النادي، أصبحت أجيد قراءة العيون، وإنني أرى في عينيكِ عشقاً يسرقكِ، أخبريني هل أستطيع أن أساعدك بشيء؟ أخبريني واعتبريني بيت أسرارك، افتحي لي قلبكِ، فأنا خالتكِ ومن المؤكد أنني سأنصحكِ وأساعدكِ.

نظرت (كاتيوشا) من النافذة في مطبخ بيت خالتها والذي يقع في الطابق السادس عشر من بناء برجي، وقالت لها بعد أن تنهدت:

-أشعر وكأني قد وقعت في الحب يا خالتي.

-حدثيني كيف تعارفتما؟ وماذا حصل أثناء ذلك؟ و ما هي صفاته؟

-ما إن رأيته وسمعت صوته حتى شعرت وكأنه زرع في قلبي زهرة الربيع، كان يحدثني وكأنه يلقي في أسماعي قصائد من الشعر، أحسست وكأن مع هذا الشاب أوقدت شمعة سعادتي، عندما شعرت بالبرد خلع قبعته ووضعها على رأسي، تخيلت أنها ذلك التاج الذي تتوج به أحلى ملكات الأرض، لم أشعر أن هذا الشاب يرتدي قناعاً، كان في صوته براءة مطلقة، تشبه البراءة التي سمعتها في

صوت أمي، ولكنني مع كل هذا لا أريد أن أحبه لأنني أعلم أنه من المستحيل أن أحكم على أي شخص من لقاء واحد.

كانت خالة (كاتيوشا) على درجة عالية من الوعي وامتزج في قلبها وعقلها آلاف الأشخاص والحالات وأصبحت تدعو لـ(كاتيوشا) بالسعادة، وأن لا يكون حظها في الدنيا مثل أمها و التي فقدت زوجها وهو لم يصل بعد الى سن الخامسة والعشرين، أو جدتها و التي ترملت كذلك في سن مبكرة، ناهيك عن مصير خالتها نفسها و التي لم تحظى بفرصة الزواج أساساً.

في الواقع أن روسيا تعاني من أزمة ديموغرافية كما يعاني أي بلد بعد الحرب، فالحرب حصدت أكثر من سبعين بالمائة من شباب روسيا، فأصبحت روسيا تعاني من حرب أخرى وهي حرب العنوسة، وهذه مشكلة لا تحلها إلا السنوات، لقد خاضت روسيا أبشع الحروب التي شهدها التاريخ، وهي الحرب التي فُرضت على الاتحاد السوفييتي، فحصدت الحرب أكثر من ثلاثين مليون من الشباب في ريعان العمر، لذا أصبح الشعب الروسي يعاني

من قلة ـ في عدد الرجال والشبان، هذا الواقع قد فرض على الشعب الروسي العظيم أن تقوم المرأة بأعباء الرجل، و لعله كذلك فرض عليها أن تكون مطيعة لزوجها ، لأن الطلاق في هذه البلاد لا يحمل شروطاً صعبة للزوج، فبمجرد ما أن يخرج الزوج من البيت ولا يعود فهذا يعني أنه قد حصل الطلاق، كما وأن الزواج للرجل مباح وسهل لأنه بمجرد ما إن يخرج إلى الشارع حتى يرى العديد من النساء الجميلات من حوله، فلعل هذا الواقع قد هضم حقوق المرأة، و مع ذلك كان هذا الواقع من الأسباب التي دفعت المرأة في روسيا الى أن تكون هي من تبني المجتمع، وكان لها الفضل الأكبر في بناء روسيا العظيمة مجدداً، فقد وجدت نفسها في ظروف ما بعد الحرب تعمل في تعبيد الطرقات، وبناء البيوت والجسور، وتحفر الآبار، وتقود الباصات والسيارات والقطارات وحتى الطائرات، فتحمل سلاحها في يدها اليمنى، ووردة أنوثتها في يدها اليسرى، وهذا الواقع كانت أم (كاتيوشا) وخالتها وجدتها لهن نصيب منه، لذا كانت خالة (كاتيوشا) خائفة عليها ولا تريد لها أن تقاسي ما قاسه .

في الساعة السادسة استيقظت (كاتيوشا) لتجد العشاء ينتظرها وبجانبه رسالة من خالتها كتبت فيها: حبيبتي أنا ذاهبة للعمل، لا تنسي أن تكملي دراستك ولا تخرجي من البيت إلا بأذني، واذا شئتِ تستطيعين أن تأتي إلي في العمل في نادي (الدي آند نايت).

الفصل الرابع:

ها قد دق ناقوس آذار ليعيد أروع ما قد خلقه اللّه من جمال الطبيعة الخلابة في روسيا ، و يصادف الثامن من آذار مناسبة عيد المرأة العالمي، في هذا اليوم يشتري الرجال الزهور و يهدوها لمن يحبون من النساء، كما و تعم الاحتفالات الصاخبة، حيث تعتبر هذه المناسبة مهمة جداً في روسيا، كما ويعتبرها الكثيرون المناسبة الأهم في حياتهم، و في العادة يبدؤون التهاني في هذا العيد من عند الأمهات يقدمون لهن الزهور ويهنؤهن بالعيد، حتى السجينات لهن نصيب من هذا العيد فيسمح لمن يرغب بذلك أن يزورهن ويقدم لهن الزهور حتى ينلّن نصيبهن من الاحتفال بهذه المناسبة.

اعتاد نادي (الداي آند نايت) التحضير لهذه المناسبة مسبقاً، لما تحمله من أهمية وحضور لافت ومشاركة غنية، وكان من أهم الحاضرين بهذه المناسبة في النادي هذا الرجل الذي يسمى (السعيد).

مع أن (غريغوري) لم يراه قط يأتي إلى النادي بصحبة

امرأة، فكان يشبّهه بسيدته (نتالي) حيث أنه لم يراها مع رجلٍ، كما أن (السعيد) لم يُشاهد بصحبة امرأة، زد على ذلك فسيدته لا تملك أصدقاء مقربين و تبقى منشغلة في عملها ولا يعنيها هذا النوع من المناسبات.

كانت مراسم الاحتفال قد بدأت في النادي عندما وصل (غريغوري) إلى النادي و بيده باقةٌ من الورد و التي كان يشك أن تقبلها سيدته (نتالي) منه.

دخل (غريغوري) النادي و ألقى التحية على عاملة الاستقبال (دانيلئيدا إيفانوفنا) و التي كانت تستلم المعاطف من زوار النادي المبتهجين، ثم دخل غرفة (نتالي) ليعطيها الباقة التي أحضرها لها، تفاجئ (غريغوري) عندما قبلت نتالي ولأول مرة الورود منه، أحس (غريغوري) أنه لا يصدق عينيه فقد كانت تبتسم و ظهر على وجهها علامات الرضا بل و الشغف، بان على وجهها ملامح صراع بين تأثير حزنها الذي اعتادت عليه و إرادة الحياة و الاستمتاع بالسعادة و الحب.

تسأل (غريغوري): أيعقل أن سيدته تعشق؟ و من يكون هذا الرجل الذي فتق قلب الصخرة حتى أنبتت وردة

الحب؟ من ذلك الساحر الذي استطاع أن يسحرها؟

كانت (نتالي) تنظر في شاشة المراقبة التي تعرض أحداث القاعة، وكان هذا الرجل الذي يسمى (السعيد) وكأن هناك شخصٌ يحمل الكاميرا ويلحق به في القاعة، فقد كانت الشاشة لا تعرض سواه و (نتالي) متمعنة ومنشغلة به، وفي عينيها سرورٌ لم يلاحظه (غريغوري) قبل هذه الساعة طوال مدة عمله معها .

كلم (غريغوري) سيدته مستأذناً:

-هل تريدين مني شيء سيدتي؟ أنا ذاهب لأتمم بعض الأعمال في القاعة...

لكنها لم تسمعه فخرج من المكتب بهدوء وتركها تتمعن بهذا الرجل، وقف (غريغوري) عند مدخل القاعة وأخذ يدعو الله أن يستطيع هذا الذي يسمى (السعيد) أن يخرج (نتالي) من أحزانها، لأنه رجل لم يشاهده إلا سعيداً، ومع أن (غريغوري) كان على يقين أن قلب هذا الرجل صندوق محكم الإقفال ولا يمكن اختراقه بسهولة، ولكنه أيضاً كان واثقاً بأنه ما أن يرى وجه سيدته (نتالي) الجميل حتى تمزق عيونها مسننات أقفاله وتفجر حيطان صندوقه، فإن

(نتالي) رائعة الجمال لكن جمالها قد غطاه غطاء القدر الأحمق الذي رافقها منذ طفولتها، كان يقول لنفسه دائماً: إن سيدته (نتالي) لم تطرد السعادة من حياتها، لكن قدرها كان مريراً لم يعرف السعادة، لو استطاع أحدهم أن يحل طلاسم الحزن الذي لا يفارقها لدخل عالماً من الحب و السعادة.

بينما عينا (غريغوري) كانت شاردة بين تراقص الأضواء ارتسم أمامه (السعيد) قائلاً:

-كيف حالك يا عم (غريغوري) ماذا بك تشرد كما لو أنك عاشقٌ؟

تبسم (غريغوري) قائلاً:

-نعم أنني عاشقٌ، عاشقٌ لساعة يلتقي فيها من أحببته مع من يكمل نصفه الضائع... !

فقال له (السعيد):

- لم أكن أعلم أنك فيلسوف يا عم (غريغوري) !

-إن الإنسان كالطالب في كلية الفلسفة، فكل عقدٍ من السنين هو سنة في الجامعة، و هكذا إلى أن تعلمه الحياة كل قواعد فلسفتها .

فنصحه (السعيد):

-إنني أراك على غير عادتك، فأحذر أن تتخاصم مع السعادة فأنت ستكون حينها الخاسر الوحيد .

في أثناء حديثهما آتى الحارس الشخصي للسيدة (نتالي) و أخبر (غريغوري) أنها تطلب منه أن يأتي إليها.

عندما استأذن (غريغوري) بالدخول إلى مكتب السيدة (نتالي)، طلبت منه أن يرافقها الى المنزل لكي يساعدها برفع الثلج عن مدخل المنزل لأن الموظف المسؤول عن هذا قد كسرت قدمه .

أحس (غريغوري) أنها في الحقيقة كانت تريد أن تعرف منه بعض الأخبار عن (السعيد) حيث أنها من المؤكد قد شاهدته من خلال شاشة المراقبة يتكلم مع (السعيد) فحاولت أن تفهم منه ما إذا كان قد عرف أية معلومات إضافية عن هذا الشخص المتستر بالغموض الدائم عن حياته و عمله .

عندما فتح (غريغوري) الباب المؤدي من المكتب و عَبَر الصالة إلى خارج النادي اصطدم وجهاً لوجه بـ(السعيد)، لقد نسي (غريغوري) أن سيدته تمشي من خلفه، وحيث

أصبح بين (السعيد) و (نتالي) فبدت وكأنها تهرب من بين حراسها باتجاهه، وما أن انتبه لهذا الوضع وابتعد مفسحاً المجال لها لكي تمر، اصطدمت سيدته بدورها بالسعيد وجهاً لوجه، فكادت تسقط على الأرض لولا تدخل الحراس الذين أمسكوا بها قبل أن تسقط، أعتذر السعيد بأدب من السيدة (نتالي) لاحظ (غريغوري) من طريقة اعتذار (السعيد) أنه على معرفة بسيدته، و فطن (غريغوري) أن ذلك من الطبيعي، لأن (السعيد) منذ سنتين يتردد على هذا النادي فكيف لا يعلم من هي صاحبة (النادي) و لكن يبدوا أن المعرفة كانت سطحية جداً و اقتصرت على المجاملات المعهودة والتحية العابرة.

لقد كان الموقف مزعجاً بالنسبة لـ(غريغوري)، لأنه شعر وكأنه هو السبب في ذلك، ولكنه حمد الله حيث لم تكترث سيدته (نتالي) لهذا الموقف، ولم ينل نصيبه من التوبيخ كعادته فشكر الله على مرور الموقف بسلام .

فجأة غيرت السيدة (نتالي) رأيها بموضوع الذهاب الى المنزل كما قالت لـ(غريغوري) و طلبت منه البقاء في النادي، بعدها بقليل حدث عطل في أجهزة الصوت في

النادي فهرع (غريغوري) لجلب الفني بأسرع وقت حيث تم تدارك المشكلة بسرعة، انتبه (غريغوري) أثناء ذلك أن (أندريه) غير موجود في النادي منذ الصباح و عندما تحرى عند بعض العاملين عن سبب عدم وجوده في النادي في هذا اليوم المهم، أسرّوا له أن (أندريه) قد ذهب ليهيئ وجبة عشاء بمناسبة عيد المرأة على شرف السيدة (نتالي) في مطعمٍ يعتبر الأهم من نوعه في المدينة، و للحقيقة فهذا المطعم في قمة الروعة، فهو يتربع كالنسر على قمة جبل ينادي كل من يراه من بعيد أن يحضر لزيارته، كان هذا المكان على قمة جبل يوصل إليه جسرٌ يتأرجح فوق نهر النيفا الرائع، حيث يقع هذا المطعم على ارتفاع 200متر من سطح المدينة، كما و يمكن أن يصل الزائر إليه عبر مصعدٍ زجاجي، يرى من خلاله مناظر المدينة الرائعة وكأنه مرشدٌ ودليل سياحي يروي للسياح المعلومات عن المدينة الجميلة.

كان لهذا المكان ذكرى جميلة في نفس (غريغوري)، حيث في ذلك المكان دعته سيدته (نتالي) مع زوجته ليحتفلوا بعيد الميلاد الأول لابنتهما (إلينا) وكان معهم

أيضاً (أندريه) والذي خرج بعد نصف ساعة من المطعم غاضباً، بسبب أن (نتالي) قامت بتوبيخه لأنه حاول التقليل من قدر (غريغوري) أمام زوجته .

خمن (غريغوري) أنه بما أن (أندريه) قد ذهب الى ذلك المطعم الفخم من أجل أن يصنع لـ(نتالي) مفاجئة في عيد المرأة فلاشك أن هناك مشكلة تنتظر مخططاته، فَهِمَ (غريغوري) أنه لهذا السبب قد طلبت (نتالي) منه أن يذهب معها، لأنه كان من أولى حسابات (أندريه) بأنه لن يكون (غريغوري) موجوداً بجانب (نتالي) في هكذا مناسبة، و هذا ما سيتيح له أن يتكلم مع (نتالي) بما تجيش به نفسه، حيث بوجود (غريغوري) لن يتمكن من أن يتكلم بأي حديث خاص، وفي الواقع كان (غريغوري) يدرك أنه لولا سيدته (نتالي) وتمسكها به، لكان من أولى أوامر (أندريه) هو طرده من العمل .

لشد ما كان يتمنى (غريغوري) أن تلتقي سيدته (نتالي) بـ(بالسعيد) وتتعرف عليه، و ذلك لشدة ما لاحظه من سعادة في حياة ذلك الرجل، و لعل الاستثناء الوحيد عن حالة السعادة عند (السعيد) كان عندما رآه بشكل لم

يعهده من قبل وكأن كل ذلك الوجه البشوش الذي يمتلكه تبدَّل بقناع وحشي وغلب عليه الاصفرار و أخذ يعصر وجهه بأصابعه بكل قوته حتى بدأ ينزف دماً، فلاحظ (غريغوري) أن هناك رجلاً في سن الشيخوخة اتى إلى (السعيد) وشده من يده، ودخل معه الى دورات المياه، دفع الفضول (غريغوري) أن يدخل ورائهما، ليرى ما سيحصل فسمع الرجل العجوز يقول لـ(السعيد):

-أرجوك يا سيدي خذ الدواء فهذا سيريحك، والولد الصغير بخير فلا تقلق .

أخرج الرجل من جيبه حقنة طبية فيها ما لا يقل عن عشرين ملم من سائل شفاف ووخزه بها في وريد يده وبعدها بدقائق معدودة أخذ (السعيد) يهدأ .

لم يشئ (غريغوري) أن يسبب أي إحراج فخرج بسرعة، إلا أن الموقف قد علق في ذهنه.

في تلك الأثناء تفاجئ (غريغوري) بأن السيدة نتالي كانت قد غادرت النادي و قد أوصت أحد العاملين ليخبر (غريغوري) أن يذهب إلى منزلها.

دخل (غريغوري) بيت سيدته (نتالي) وكانت قد وصلت

قبله إلى منزلها واستبدلت ثيابها بثياب منزلية، نظر إليها (غريغوري) بنظرة الأب لابنته فقال في داخله: سبحان اللّٰه على هذا الجمال يا رب أحمها من شر الحاسدين .

وتسائل في داخله: كيف لتلك المرأة وبكل ما تملكه من سلطة ومال وجمال أن تكون في مثل تلك المناسبة وحدها ولا أحد يشاركها ويملأ ساعات فراغها فهل المشكلة بها هي؟ أم أن أعين الرجال قد أصابها العمى عن هذه السيدة؟

قدَّم (غريغوري) أسفه واعتذاره عن التأخير، وأخبرها عن سبب تأخره كما و أخبرها ما حصل مع (السعيد).

فقالت له:

-من هذا الرجل المشاغب ما اسمه ؟

-لا أعلم يا سيدتي وإنما كل ما أعرفه أنهم ينادونه (السعيد) نسبة إلى البسمة التي لا تفارق وجهه، و يبدو أنه قد أثر عليكِ فها أنا اليوم يا سيدتي -ولا تغضبي مني - أول مرة أرى بها البسمة على شفتيكِ منذ أن عرفتكِ .

كانت تستمع إلى (غريغوري) وهي تنظر الى المرآة ثم قالت له:

-أريد أن أقضي ليلة العيد معك نشرب كأساً من النبيذ.

شعر بالإحراج وقال لها:

-سيدتي أنا موظف عندكِ ومقامكِ أعلى من أن تجلسي معي، عليك بفارس يضع حسامه أمام كرسيكِ والورد على طاولتكِ.

فقالت له:

-كفاك شعراً وتعال اجلس معي.

حملا الكؤوس فوقف (غريغوري) أمامها وقال:

-يا سيدتي اسمحي لي أن أتوجه إلى الرب في هذه المناسبة لأطلب منه طلباً قبل أن أجلسِ إلى طاولتك.

ثم تابع (غريغوري):

-ربي يا من خلقت كل البشر، إجعل منذ هذا اليوم السرور والفرح دائماً في قلب سيدتي (نتالي) وارزقها بمن يحمها ويحبها ويبقى يسعى طوال العمر لسعادتها، يا أيها الرب أنا عبدك الفقير أمام عرشك أتوسل إليك وأرجوك أن تحفظ سيدتي ولا تحرمني إياها .

وقفت (نتالي) أمامه وبدأت تصفق له بعد إنهائه كلمته، وقبَّلت رأسه و طلبت منه الهدوء، لأنه كان يتكلم والدموع في عينيه، شربا كأسين من النبيذ وبعد ساعتين

من الهدوء التام خلف طاولة كان عليها صحن من الجبن والفاكهة وزجاجة من النبيذ الأحمر، سألته بضعة أسئلة كان معظمها يدور عن (السعيد).

بعد ذلك بقليل قالت له:

-أظن أن زوجتك وطفلتك (إلينا) الجميلة ينتظرانك في هذه المناسبة فاذهب إليهما.

وقف شاكراً سيدته وتوجه الى بيته تاركاً تلك السيدة الرائعة وحيدة بين أربعة جدران، في قصرٍ تملأه المجوهرات والزهور الجميلة.

الفصل الخامس:

في أثناء طريق ذهابه إلى المنزل كان (غريغوري) يرى على جنبات الطريق مجموعات من العشاق، فذاك من يعانق حبيبته، وذاك من يهديها الورد، وذاك من يقبلها، أصبح (غريغوري) يكلِّم نفسه متسائلاً: يا رب ما هذه العدالة؟ أي قدر هذا لسيدتي (نتالي) أن تعيش وحدها في مثل هذه المناسبة وهي تملك كل ما يتمنى أن يملكه غيرها؟

وبينما كان (غريغوري) ساهماً في عالم آخر من الأفكار أخرجته منه كلمات برقت في عينيه، وهي جملة كتبت على حائط كنيسة كان يمر بجانبها: لا تخف يا عبدي فالرب معك، كل شيء سيكون على ما يرام .

شدَّت تلك الجملة (غريغوري) فقرر أن يقف ويدخل تلك الكنيسة، أخذ شمعةً صغيرةً وتوجه إلى إحدى الراهبات و طلب منها:

-صلي لأجل سعادة السيدة التي أعمل عندها إذا سمحتِ يا أختاه.

فقالت له بعد أن صلت لوقت قصير:

-أشعر أن دعواتي مستجابة اليوم، فقبل أن تأتي بلحظة كنت أصلي لأجل صاحبة الصورة التي أمامي، هذه المرأة الرائعة حيث أحببت أن أصلي لأجلها وشعرت أن الربَّ يهمس لي لقد سمعت دعواتكِ...

نظر (غريغوري) إلى الصورة التي كانت بجانب الراهبة فرأى صورة سيدته (نتالي)، فقال:

-يا أختاه من أين لك هذه الصورة؟

-ومن تكون لصاحبة الصورة يا أخي؟

-إنها سيدتي (نتالي) الطيبة الرائعة التي طلبت منك أن تصلي لأجلها.

-جلبها إلى هنا شابٌ وسيم على رأسه قبعة حمراء تعلوها ريشة نورس .

عرف (غريغوري) من وصفها أنه (أندريه) و لكنه لم يفهم ما الذي هدف اليه (أندريه) من أن يأتي بصورة سيدته (نتالي) إلى الكنيسة.

ابتسمت الراهبة ابتسامةً خفيفة و قالت لـ(غريغوري) بصوتٍ منخفض:

-اعلم إذاً يا أخي أن الرجل الذي جلب الصورة قد أعطى

إحدى الراهبات نقوداً وأعطاها هذه الصورة لكي تضعها تحت رفٍ لا يصل إليه الماء المقدس المبارك من البطريرك أثناء الصلوات، وكانت هذه عادة من يقولون أن الجن مختبئ فيها.

حاول (غريغوري) أن يستوضح الموضوع أكثر من الراهبة، فقالت له:

- إن الهدف من هذا الفعل يكون التسبب بالشر لصاحبة الصورة وأن يحجبها وأن لا ترى السعادة إلا معه .

ثم تابعت الراهبة:

-إن ما فعله هذا الشاب لم يعجبني فما أن خرجت تلك الراهبة التي أعطاها النقود، أخذت الصورة وتأملتها فرأيت فيها كل الطيب والبراءة فشعرت وكأن شيئاً يناديني لكي أساعدها، فأخذت أصلي لها باسم الأب والأبن والروح القدس وأن يحميها وها أنت قد أتيت.

فقال (غريغوري):

-يا أختاه لو قلت لك لن تصدقيني، هذه هي أول مرة أدخل فيها الكنيسة وأشعل شمعة في حياتي، و اليوم كان أول مرة أجلس مع سيدتي (نتالي) صاحبة الصورة، ألا

توافقيني الرأي، كما لو أنها إرادة عليا تحدد لنا أدوارنا من أجل أن نحمي هذه الإنسانة و نقف إلى جانبها.

فدعته الراهبة:

-تعال معي نصلي لأجلها...

-حسناً ولكني لا أجيد الصلاة..

-سأدعو أبانا لكي يصلي لأجل سيدتك جهاراً وأنت صلي لها في نفسك .

أتى الخوري بلباسه الأسود وصليبه المذهَّب الكبير و الذي ارتسمت عليه صورة مسيح الحق وقال لـ(غريغوري):

-يا بني ردد ورائي بعد أن أنهي صلاتي.

بعد بضعة دقائق أنهى الخوري صلاته وقال لـ(غريغوري):

-ردد يا ولدي، باسم الأب والأبن والروح القدس، يا أيها الرب، أمامك عبدٌ فقير، أتى يريد الطيبة لسيدته، ويعلن الوفاء لها، فتقبل منه الدعاء يا صاحب الدعاء، اللهم يسر أمرها وارزقها من حيث لا تحتسب، يا رب يا سامع الدعاء أنت المجيب لولدك حين يناديك، أزل عنها الآلام كما أزلتها عن ولدك المسيح، وضع بلسمك على جروحها كما تضعها على المظلومين، يامن أوجدت اليابسة لسفينة نوح

أوجد المرسى لقارب عذابها، يامن وجدت ثمر الرمان في بئر يوسف ازرع الورد في أملها، كما أعدت النظر ليعقوب أعد البسمة لسيدة صاحب الدعاء الذي يقف أمامك، يا من صنعت صندوق موسى اصنع لها صندوقاً يقيها من شر من يريد الأذى بها، يامن حميت ابراهيم من النار احمي هذه السيدة، إنها يتيمة أمام سمائك تسألك أن تكون لها الأب والأم .

خرج (غريغوري) من الكنيسة بعدما أنهى الخوري دعائه، سرت قشعريرة خفيفة في كامل جسده عندما فكر بهذه اليد الخفية المباركة التي قادته إلى هذا المكان، ركب سيارته بعدها وانطلق إلى بيته .

الفصل السادس:

في ذلك الصباح الربيعي الذي كانت فيه الشمس تطارد الضباب، لتشرق على أبناء مدينة سانت بطرسبورغ، كانت (كاتيوشا) تقف موجهة وجهها الجميل إلى الشمس عل الشمس ترجع له لونه الذي سرقه ذلك الشتاء القاسي والذي كان فصلاً قاسياً وبارداً جداً في روسيا، ويقال إنه منذ زمن بعيد لم يأتِ على روسيا مثل هذا البرد والصقيع، كان هذا الشتاء شبيهاً بالشتاء في العام الواحد والأربعين من القرن العشرين، والذي تجمد فيه الكثيرون من جنود الجيش الألماني الذي غزا روسيا، ولم يكن بمستطاع جنوده أن يتحملوا برد هذه البلاد فمات العديد منهم بسبب البرد و التجمد.

كانت (كاتيوشا) تمشي في إحدى حدائق المدينة، حيث أن ما يقارب من الأربعين بالمئة من مساحة المدينة تغطيه الحدائق، تنتشر الحدائق في المدينة على مساحة مقدارها31 ألف هكتار أي أنه حوالي 310000000 متر مربع تقسم إلى 68 حديقة رئيسية تسمى (بارك) و ما

يقارب 166حديقة فرعية تسمى (ساد) ومقدار 1700 بقعة خضراء تملئ كل شوارع مدينة (سانت بطرسبورغ) والتي تعتبر إحدى أجمل المدن في العالم .
كانت (كاتيوشا) تمشي مع خالتها تتعرف على معالم تلك المدينة الرائعة وتتأمل طبيعتها الخلابة، و لكن ما كان يشغل تفكيرها كان ذلك الشاب الذي يدعى (أنطون) والذي تيقنت أنها تحبه، و ربما حدث تخاطر روحي بينها و بين خالتها مما دعا الخالة لأن تسألها :
-أخبريني يا(كاتيوشا) أكثر عن ذلك الشاب الذي قابلتيه عندما تأخرتِ بالمجيء الى البيت؟
عند سؤال خالتها تبدل شحوب وجهها إلى الاحمرار و تباطأت خطواتها وتنهدت بحرقة وقالت:
-لقد رأيته حتى الآن وبعد أول لقاء لنا حوالى أربع مرات، فقد كان ينتظرني أمام الجامعة ليقول لي صباح الخير و في آخر الدوام الجامعي ينتظرني ليرافقني الى محطة الباص .
-وهل تعرفين شيئاً عن عائلته وماذا يعمل؟
-لا أعلم يا خالتي عن هذا شيء، إن كل الوقت الذي

أراه فيه لا يتجاوز النصف ساعة، يصل معي من باب الكلية الى محطة الباص ولا نتكلم بشيء، فما إن يراني وأراه حتى يصيبنا الصمت، و هكذا إلى الوقت الذي يصبح فيه لزاماً أن نفترق، فيتذكر أنه أراد أن يقول لي شيئاً، فيقول لا أريد أن تقلق عليكِ خالتكِ نتكلم في اللقاء القادم، وعلى هذا النحو لا أعلم منه سوى اسمه.

-إذاً هل تحبينه؟

-لا أدري إن كنت أحبه أم لا، ولكن كلما أردت أن أقول إنني أحبه شيء ما في داخلي يخيفني.

تنهدت الخالة و قالت مع ابتسامة خفيفة:

-لا تخافي يا بنتي، بما أنك تشعرين هذا الشعور فهو الحب إذاً، فكثيراً ما تكون بداية الحب خوفاً و حيرة و أتمنى لكِ أن يكون أخره سعادة وهناء .

بعد هذا الحديث توجهت (كاتيوشا) وخالتها الى مقبرة الشهداء القريبة من المكان الذي كانتا به، لتضعا باقة من الورد على ضريح الجندي المجهول كذكرى لجدِّ (كاتيوشا) والذي استشهد في الحرب مع النازيين، لأن هذا اليوم يصادف يوم عيد ميلاده .

كانت هذه المقبرة تعتبر من أكبر المقابر في روسيا و ربما في العالم، حيث يرقد تحت ترابها أكثر من المليون ونصف شهيد، كانوا ضحايا الحصار الذي فرضه الألمان النازيون على هذه المدينة و لمدة تزيد عن التسعمئة يوم، كان أغلب الضحايا قد قضوا بسبب البرد والجوع حيث دفعوا أرواحهم ثمنا للانتصار في الحرب على النازية .

وضعت (كاتيوشا) وخالتها باقة من الورد على ضريح الجندي المجهول، وجلستا تتذكران بطلاً من المليون ونصف المليون شهيد وهو جد (كاتيوشا) والذي التحق بالجيش السوفييتي كعضو في فرقة التجسس العسكري بعد زفافه بحوالى الستة أشهر، حيث كانت طبول الحرب قد دُقت لتنال حصادها من هذا البلد، وعلى الفور التحق بالجيش قبل أن ينهي كلية الاستخبارات العسكرية بسنة دراسية واحدة، وخاصة أنه قد اتقن اللغة الألمانية كاللغة الروسية تماماً، فكان نصيبه أن يكون في الخطوط الأولى للمعركة بل و في الغالب كان يعمل خلف خطوط الأعداء، تمكن من زيارة زوجته أول مرة قادماً من ساحة المعركة حين ولدت أم (كاتيوشا) و كان في نقاهة بعد

الإصابة، و مرة جاء في زيارة قصيرة قادماً من بولونيا وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي يرونه فيها، ومن ثم انقطعت أخباره حتى أتاهم خبر استشهاده في المعركة.

كانت جدة (كاتيوشا) تقص لأمها عن بعض بطولات هذا الرجل، والتي حدثها بها أحد أصدقائه المقربين عندما زارهم بعد الحرب بعدة سنوات عرفاناً لصديقه الذي أنقذه في أحد المعارك، حيث حدثهم أنه استشهد حينما تلقى الأوامر بأن يتوجه إلى برلين ليعمل في الاستطلاع الحربي لصالح بلده، وأنه كان صاحب فضلٍ كبير في كسر الجدار الفولاذي لبرلين، حيث استطاع أن يسلم القيادة أسرار مهمة عن خطط و تحصينات أعدائهم، كما وقام بتسميم الطعام المخصص لجنود الخط الأول للعدو، كذلك قام بالعديد من العمليات الجريئة و الخطيرة الأخرى والتي كانت ليست بغريبة عن عناصر و ضباط الجيش الأحمر، الممتلئين حماسة و وطنية، و لا سيما بعد أن قررت قيادتهم أن لا توقف الحرب الا بعد إسقاط برلين و القضاء على النظام النازي في ألمانيا.

حقاً لقد كان الجيش السوفييتي جيشاً عظيماً فقد دحر

جيوش النازية، والتي ما كانت عدوة لروسيا فقط وإنما عدوة لكل الإنسانية، فالجيش السوفييتي لم يدحر النازيين إلى خارج روسيا فحسب، وإنما حرر جميع الشعوب المضطهدة في شرق و وسط أوروبا، ففي بولونيا وحدها أنقذ نصف مليون معتقل كانوا مهيئين ليتم قتلهم في معتقلات الإبادة و ثم ليصنع من أجسادهم الصابون .

إن الجيش السوفييتي قد حرم نفسه قطعة الخبز ليطعمها للشعوب الجائعة، فقد حرر الآلاف من مختبرات التجارب حيث كان العلماء النازيون يستعملونهم في تجاربهم العلمية ويزرعون في أجسادهم الباكتيريا .

بعد أن وقفتا دقيقة صمت لذكرى هؤلاء الأبطال استمرت (كاتيوشا) و خالتها بالتنزه في الحدائق التي كانت تحيط بالمكان، سألت الخالة (كاتيوشا):

-أريد أن أسألك يا (كاتيوشا) هذا الشاب (أنطون) لماذا دخل إلى فؤادك بهذه السرعة؟

-في الحقيقة لا أدري كيف بهذه السرعة دخل هذا الشاب فؤادي، مع أنني قطعت عهداً لأمي أن لا يدخل أحد قلبي حتى أنهي دراستي، فعندما رمى علي أول كلمة

وقال: بريفيت[3] فكأن هذه الكلمة السحرية قد أيقظت مشاعري، فشعرت بقدميَّ تتوقفان وما عادتا تريدان المسير، تقدم مني وقال لي: أنا اسمي (أنطون)، فجاوبته بسرعة: وأنا أسمي (كاتيوشا) وكأنني انتظرت منه أن يسألني عن اسمي فسبقت سؤاله بجوابي.

جلسنا على مقعد عند ضفة النهر الذي تتلاطم أمواجه بأسوار قلعة بطرس الأكبر، فأخذ يحدثني عن هذه القلعة بعدما علم أنني لست من هذه المدينة وأتيت إليها حتى أتمم تعليمي في الجامعة، فعرض علي أن أذهب معه في رحلة في أرجاء المدينة حتى يعرفني على معالمها .

قال لي أن بطرس الأكبر قد وضع حجر الأساس لهذه المدينة سنة 1700 في منطقة مستنقعات لتكون الجبهة التي تحمي مملكته من غزو عدوه ملك السويد و لتكون نافذة لروسيا على أوروبا .

لقد حدثني أن قلعة بطرس التي رسم مخططاتها المهندس الفرنسي (جوزيف لامبيرا) في 27 أيار سنة1703 قد بنيت على جزيرة (زياتشي) ثم وصلت مع جزيرة (بتراغراد)

---

[3] كلمة روسية دارجة تستخدم للتحية (الناشر).

بجسر سمي جسر (يوحنا) والذي بناه من الخشب مؤسس الأسطول البحري الروسي (بطرس) في بادئ الأمر، ومن ثم ازدادت بيوت النبلاء و رجال الدولة وتحول البناء من خشب إلى حجر الجرانيت سنة 1768.

عندما فتحت الجسور وهاجت الناس تستمتع بجو المدينة ومنظر الجسور الرائع شعرت بالحزن بدأ يتسرب إلى وجه (أنطون).

حقيقة كان منظر إنزال الجسور و فتحها رائعاً، ففي خلال ساعة من الزمن يتم إنزال ما يقارب 101 جسراً توصل بين جزر المدينة، حيث تصبح هذه الجسور سالكة للسيارات و المشاة و باقي وسائل المواصلات، وفي الليل يتم رفعها لتقطعها عن بعضها حتى تعبر السفن التي تتوجه الى كل أنحاء العالم.

كان (أنطون) صامتاً حينما فتحت الجسور، تكلم بعدها و قال: تعالي نقوم برحلة نشاهد بعض آثار المدينة الجميلة، أخذنا أنا وهو نسير وكان الحياء يمنعنا من أن نلمس أيادي بعضنا .

قطعنا شارع المدينة الرئيسي والذي يسمى (النفسكي)

ووصلنا إلى الساحة الرئيسة والتي بها قصر الأرميتاج، قال لي أنه اليوم تحول قصر الأرميتاج إلى متحف يعتبر من أضخم المتاحف في العالم، حيث يوجد به ما يقارب ثلاثة ملايين عمل فني، من لوحات و تماثيل موزعة على خمسة أبنية في القصر، وبعدها عبرنا المتحف الروسي الذي يحتوي على أربع مائة ألف لوحة منذ أقدم الأزمان وحتى القرن العشرين، كان هذا المتحف من أجمل المتاحف التي بناها الإمبراطور (نيكولاي الثاني) سنة 1898 وكان بمثابة أول متحف حكومي في روسيا.

وبعدها عبرنا كنيسة كانت تسمى كنيسة (الدم المنقذ) نسبة للذين استشهدوا حتى ينقذوا غيرهم من الأحياء، وضع حجر الأساس لهذه الكنيسة (ألكسندر الثاني) سنة 1881 هذا القيصر الذي كان يطلق عليه من قبل شعبه اسم (ألكسندر المحرر) حيث وضع قانون يمنع العبودية .

ثم دخلنا دير الإسايفسكي كان منظره رائعاً يا خالتي فهو يستوعب حوالي 12000 شخصاً من المصلين، وكما شرح لي (أنطون) فقد كان الدير الرئيسي لمسيحيي روسيا حتى سنة 1917 ومساحته تقريبا 4000 آلاف متر مربع و

قد حولوه سنة 1937 إلى متحف التاريخ الفني.

و سبب تسميته بهذا الاسم هو أن (بطرس الأكبر) قد ولد في يوم 30أيار و هذا اليوم يصادف عيد القديس (اسحاق) و في سنة1710 أعطى بطرس الأكبر أمراً ببدء بناء هذا الدير وسمي باسم دير (اسحاق)[4] .

وفي آخر المشوار يا خالتي وقفنا عند سفينة (أفرورا) هذه السفينة الضخمة بهيكلها وتاريخها العظيم، حيث كانت تلك السفينة هي أول سفينة يُرفع عليها العلم الأحمر و منها أطلقت القذيفة التي أعلنت بدأ الثوار الهجوم على القصر الشتوي، حيث تم الاستيلاء على مقر حكم القيصر ومحو صفحة الحكم الملكي، لتبدأ صفحة جديدة في تاريخ روسيا في سنة 1917 وهي سنة ولادة الاتحاد السوفييتي و الجيش الأحمر.

-من الواضح يا (كاتيوشا) أن (أنطون) شاب مثقف و يحب وطنه روسيا و مدينته (سانت بطرسبورغ) كثيراً، و لعل هذا من الصفات التي جعلتك تميلين إليه و تثقين به؟

-يا خالتي لا أعرف تماماً ماذا كان يجري بروحي أثناء

---

[4] باللغة الروسية يلفظ اسم اسحاق بلفظة إساك و النسبة منه إسايفسكي (الناشر).

الوقت الذي أمضيناه سوية، كل شيء في عقلي كان يتقلب، ففي كل لحظة كان قلبي يشعر بالخوف وبالأمان في آن واحد.

الفصل السابع:

في آخر لقاء لهما أخبر (أنطون) (كاتيوشا) أن أمه ينهكها المرض يوماً بعد يوم، وهي الآن في حالة حرجة، و أنه يشعر أن (كاتيوشا) هي الوحيدة التي ستكون معه وبجانبه في محنته هذه .

كما و أخبرها أنه قد حدّث أمه عنها، ووصف لها كم هو في حالة اشتياق دائم لـ(كاتيوشا) وأنها قد ملكت خياله وأحلامه وقال إنه قد وجد كل الذي كان يبحث عنه في (كاتيوشا) .

حدث (أنطون) (كاتيوشا) بأخر حديث جرى بينه و بين أمه المريضة، حيث دار بينهما الحديث التالي:

-أتدرين يا أمي إنها فتاة جعل الله كل ما هو جميل في الدنيا موجوداً بها .

-يا ولدي أشعر وكأن اليوم الذي سأراك تتزوج به حبيبتك يسابقه يوم موتي وأشعر وكأنني لن أعيش حتى أرى ذلك اليوم.

-كفاك تشاؤماً يا أمي، سأرقص أنا وأنت بعد في زفاف

أبنائي.

و لكن هذه الهواجس قد تحققت سريعاً، فبُعيدَ هذا الحديث ساءت حالة والدة (أنطون) فتم نقلها إلى المستشفى، حيث دخلت العناية المشددة، تحدث (أنطون) مع الطبيب الذي أجرى الفحوص الطبية اللازمة لوالدته، فقال له الطبيب:

-أن أمك ستبقى لدينا هذه الليلة لنتأكد من نتيجة التشخيص و لنجري بعض التحاليل الضرورية.

خرج (أنطون) يطارد طيور الحمام التي كانت تلاعب أعشاب حديقة المشفى الذي كانت أمه تزوره للمرة الخامسة هذه السنة، وذهب يستقبل (كاتيوشا) والتي كانت على موعدٍ معه في المشفى لترى أمه، جاءت (كاتيوشا) وعلمت من (أنطون) أن أمه ستبقى في المشفى وأن حالتها حرجة فأخذت بالبكاء لشدة حزنها على هذه المرأة الطيبة وقالت له:

- أنني أخاف أن ترحل عنا أمك الطيبة يا (أنطون).

جلست (كاتيوشا) الى جانب حبيبها على كرسي حديقة المشفى ووضعت رأسها على صدره وكان هو يضمها بيديه

وكأنه يخاف أن تهرب وأخذت تقول له:

- أتحبني يا (أنطون)؟

- بالطبع يا حبيبتي وهل هذا بسؤال وسأبقى أحبك مهما كانت الصعاب ومهما كانت الدنيا تحضِّرُ لنا من مفاجآت ومهما كان طريقنا مليئاً بالأشواك.

أدارت وجهها وخبأته في أحضان (أنطون) وهي تبتسم وقالت باستهزاء :

-سأقتلك لو أحببت واحدة غيري .

فقال لها:

- وهل يقتل الميت؟ فأنتِ قتلتني من أول يومٍ رأيتكِ به، أنا لا أراكِ إلا ملاكاً من ملائكة الجنة، فروحي هي التي تعشق روحك و لا تستطيع الحياة بعيدة عنك .

فقالت له:

-لا تدري كم أطمئن عندما أكون بجانبك، في أحضانك ترتاح روحي، و لكن أتدري يا حبيبي في ليلة أمس حلمت حلماً أخافني .

-ما هذا الحلم يا حبيبتي؟

-كنت أنا وأنت في حديقة مليئة بالزهور نرقص على

ألحان (تشيكوفسكي) أو ربما كانت موسيقا لـ(بيتهوفن) لا أعلم بالتحديد، إلا أنها كانت رائعة حتى أن الهدهد رقص عند أقدامنا والعصافير غردت من حولنا، لكنني أغمضت عيني للحظة حيث كنت تسقيني كأساً من النبيذ الأحمر، فتحت عيوني وبقي كل شيء على ما هو ولكنني رأيت وجه شاب يضحك لي، كان هذا ليس وجهك ولكنه بجسدك وكأنك لبست قناعاً على رأسك، وأنا استمريت بالرقص معه وأغمضت عيني فسقاني لابس القناع هذا شرابه، وفجأة أصبحت عيوني تبكي بكاءً شديداً وأنت تراني ولم تبال لبكائي.

ضم (أنطون) (كاتيوشا) إلى أحضانه عندما انتهت من سرد حلمها وأخذ يشدها بقوة وكأنه من خوفه أن يفقدها لا يريدها أن تبتعد عنه البتة.

بعد أن جلسا فترة من الزمن مع بعضهما قام (أنطون) بتوصيل (كاتيوشا) إلى مكان عملها في نادي (الداي آند نايت) حيث كان هنالك مناسبة احتفال في النادي، و كانت خالة (كاتيوشا) مريضة، فطلبت من (كاتيوشا) أن تقوم بالعمل لوحدها ذلك اليوم.

الفصل الثامن:

دخلت (كاتيوشا) نادي (الدي آند نايت) بعد أن أمضت وقتاً جميلاً مع حبيبها رغم الأحزان التي أرخت بظلالها عليهما، في هذه الليلة بالإضافة إلى مهامها في قسم استلام ملابس الزبائن، طلب منها مدير النادي (أندريه) أن تساعد الطاقم على ترتيب موائد الحفل في صالة النادي، حيث كان الحفل يحمل خصوصية معينة فقد أقيم بمناسبة عيد الميلاد الثلاثين لفتاة تدعى (أنستاسيا).

اعتاد الناس في هذه المدينة أن يقيموا حفلاً كبيراً عند انتهاء كل عقد من العمر، حيث أن (أنستاسيا) قد بلغت العقد الثالث و لكنها بقيت في أعين الناس تلك الطفلة التي سقطت في مجاري الصرف الصحي وكانت بعمر أربع سنوات، فقبيل عيد رأس السنة في تلك الليلة سمع بعض الناس صوت طفلة من أنفاق الصرف الصحي فأسرعوا على الفور وأخبروا السلطات المختصة بشأنها، والتي بدورها بدأت بالبحث عن الطفلة في أنابيب الصرف الصحي، حيث عرض هذه الأنابيب حوالي ثلاثة أمتار و

تقع على عمق ستة أمتار وسطياً وأما طولها فيمتد على شكل شبكة عنكبوتية تنتشر تحت كامل المدينة والتي مساحتها عشرة آلاف كيلو متر مربع، فكانت جهود الإنقاذ مضنية و يمكن تشبيهها بالبحث عن إبرة في كومة قش .

نزل رجال الطوارئ إلى شبكة الصرف الصحي و بعد بحث مضني عثروا على قفاز للطفلة، وعلى الفور أخبروا قسم المباحث الجنائية و بلغ من تأثير الحادث أنه حتى المخابرات والتي كانت تدعى (الكي. جي. بي) قد تدخلت في جهود الإنقاذ، وبعد يومين من البحث وجدوا قطعة من ثياب الطفلة، مما دعا لاستنفار جيش الطوارئ والذي خصص ما لا يقل عن خمسين ألف عنصر ليبحثوا عن الطفلة في شبكة الصرف الصحي في المدينة، ولسوء حظ الطفلة في تلك الأثناء أنفجر أنبوب الماء الساخن والذي أخذ يتدفق إلى مصارف الصرف الصحي، وهذا كان يعني الموت المحتم للطفلة، فقامت السلطات المختصة على الفور بوضع مئات المضخات والتي أخذت تضخ الماء للخارج حتى لا تتأثر الطفلة حيث عثر رجال الطوارئ بعدها على الطفلة

منهكة و متألمة من الكثير من الإصابات والحروق، وعلى الفور أرسلت إلى المشفى الرئيس للمدينة، حيث طوق المشفى برجال الأمن ومنع أي فرد من زيارتها ماعدا المعالجة النفسية المختصة بمشكلات الأطفال، فكان لهذه المعالجة النفسية الفضل بأنها استطاعت أن تفهم من الطفلة بعض الكلمات والتي دلت أن وراء رميها في الصرف الصحي مجرم يستحق العقاب، كما و ذكرت الطفلة اسم أمها، ثم قالت الطفلة أن الثعلب هو من رماها في حفرة الصرف الصحي، وبعد التحريات والمتابعة الجدية من الجهات المختصة اكتشفوا أن زوجة أب الطفلة هي التي قامت برميها في الحفرة متعمدة وأنها كانت ترتدي قناعاً على رأسها بشكل ثعلب .

كانت أحداث هذه القصة مثيرة وشغلت الرأي العام بشدة في حينه، كما و تركزت جهود الدولة لحلها، لذلك كانت مناسبة عيد ميلاد (أنستاسيا) الثلاثون محط اهتمام في ذلك اليوم، وكان الحضور كثيفاً في نادي (الدي آند نايت) ومن بين الحضور كان الضباط الذين أشرفوا على التحقيق في القضية و وزير الطوارئ وعناصر

الشرطة والكثير الكثير من أصدقائها وأقاربها .
كان الاحتفال كبيراً و الحضور كثيفاً مما قد أتعب (كاتيوشا) المسكينة والتي كانت تعمل في النادي، بالإضافة إلى دراستها في الجامعة و التي كانت تتطلب منها وقتاً و مجهوداً كبيراً.
مع ذلك كانت (كاتيوشا) رائعة و هي في مطلع العشرين من عمرها، ولكن لو نظر المرء في عينيها لرأى براءة طفلة في العاشرة من عمرها .
كان العم (غريغوري) يراقب (كاتيوشا) من بعيد و يحاول أن يسهل عملها قدر المستطاع، لم يكن (غريغوري) يعرفها معرفة شخصية جيدة سوى أنها كانت ابنة أخت (دانيلئيدا إيفانوفنا) و التي كان يكن لها كل احترام و مودة، و رغم أنه لم يتكلم مع (كاتيوشا) في مواضيع خاصة لكنه في تلك الليلة رأى في عينيها التعب مع أن البسمة لم تكن تفارق وجهها الجميل .
اقترب منها (غريغوري) وسألها :
-ما بكِ يا (كاتيوشا) ؟
نظرت إليه وقالت:

- لا شيء مهم يا عم (غريغوري) إنني فقط متعبة بعض الشيء.

- أيزعجكِ أحدٌ هنا ؟ أنا أعرفكِ جيداً و أنت لا تجيدين الكذب، وأنا قلق عليكِ..

وما أن أكمل (غريغوري) جملته حتى رأى الدمعة قد نزلت فوق خدها كأنها لؤلؤة .

اقترب منها ومسح دمعتها ثم خاطبها مواسياً:

-أخبريني يا صغيرتي هل بإمكاني أن أساعدكِ بشيء ما هنا، فأنتِ مثل ابنتي (إلينا)؟

إلا أن (كاتيوشا) قد بلعت دمعتها و هزت برأسها بدافع من كبريائها، عندها توجه (غريغوري) إلى البار وملأ قليلاً من النبيذ في كأس وقال لها:

-خذيه واشربيه لعله يعطيك بعض الراحة.

أدرك (غريغوري) حينها وبعد أن رأى الحزن في عيون (كاتيوشا) و شعر بكلماتها تختزن كل هذا الأسى و اللوعة، أنه لا بد من وجود قصة حب تختبئ سطورها في داخل قلب (كاتيوشا) و هي التي تسبب لها هذا القدر من الحزن و القلق.

الفصل التاسع:

بعد فترة قصيرة من الزمن، بعد ذلك اليوم الذي كان الحبيبان يجلسان في حديقة المشفى ينتظران نتائج الفحوص الطبية، استفحل مرض والدة (أنطون) ودنا آخر أيامها، وفي آخر ليلة لها، ودعت ولدها الوحيد وباركت علاقته مع ملاكه (كاتيوشا)، و لعل الشيء الوحيد الذي كان يحزُّ في قلب والدة (أنطون) و يؤسفها أنها لن تراه يتزوج و لن ترى أحفادها قبل أن تموت، ففي الواقع ما إن علمت والدة (أنطون) بحبه لـ(كاتيوشا) حتى انتابتها الفرحة وقالت له:

-أريد أن أزوجك وأفرح برؤية أطفالك قبل أن أموت.

لكن يد القدر القاسية حالت دون أمنيتها هذه.

في ذلك اليوم الصعب الذي ودَّع فيه (أنطون) أمه التي أغلقت عينيها إلى الأبد، كانت دموع (كاتيوشا) لا تفارق وجهها وكانت أقرب إنسان بقي لـ(أنطون) .

كان وجودها بجانبه لحظة رحيل أمه قد خفف من آلامه كثيراً، حيث كانت تمسك بيده وتمسح دموعه وتواسيه

بقدر ما تستطيع .
كانت هذه اللحظات قد جعلت من حب العاشقين لبعضهما أقوى وشعرا وكأنهما جسدان بروح واحدة .
بعد مراسم العزاء ذهب (أنطون) و (كاتيوشا) مع عدد من أقرباء وأصدقاء الفقيدة الى المقبرة حتى يتمموا آخر مراسم العزاء وهي لحظة دفن الجثمان.
حملت (كاتيوشا) بأناملها الناعمة حفنة من التراب ورمتها على جثمان الفقيدة، وكما جرت العادة في روسيا أخذ كل واحد من الحاضرين يتقدم بدوره و يرمي حفنة من التراب على الجثمان، وبعدها توجهوا إلى بيت (أنطون) ليأكلوا وجبة غداء على روح الفقيدة.
إن تأثير وفاة والدة أنطون كان كبيراً على (كاتيوشا) كما وكان (أنطون) بعد أشهر قليلة يتوجب عليه أن يذهب إلى الخدمة العسكرية ليكمل واجبه الوطني كما هو حال كل الشبان اللائقين جسدياً للخدمة العسكرية في روسيا.
كل هذه الأحداث مجتمعة جعلت (كاتيوشا) مكتئبة، دائمة التفكير كيف لها أن تطيق البعد عن أنطون بعد

كل هذه العلاقة والحب، فقد اعتادت أن تكون بجانبه سواء طيلة فترة مرض أمه أو بعد وفاتها.

كانت (كاتيوشا) تقضي معظم أوقات الفراغ المتبقية لديها بعد حضور محاضراتها في الجامعة و عملها في النادي مع (أنطون)، و حيث أن العطلة الصيفية قد أصبحت على الأبواب فقد تم الاتفاق بينهما أن يذهبا الى قرية (كاتيوشا) حيث تم تنسيق هذا الأمر مع خالتها و التي و من بعد أن تعرفت على (أنطون) وفهمت مدى حبه لـ(كاتيوشا) أصبحت من أكثر الناس مساعدة لهما.

توجه القطار بالحبيبين الى قرية (كاتيوشا) بعد سفر دام عدة ساعات كان (أنطون) خلال هذه الساعات يشعر بالخوف والارتباك مثل أي شاب يذهب ليلاقي أهل عروسته، كان طيلة مسافة الطريق يحضن أكتاف حبيبته بيده وعيناه ساهمتان تتأملان السماء.

وصل الحبيبان إلى مدخل القرية و هناك كانت المفاجئة و التي كانت الخالة (دانيلئيدا ايفانوفنا) تخطط لها منذ أن اتفقت مع (أنطون) على أن يزور القرية.

كان في استقبالهم مجموعة من النساء المتقدمات بالعمر

ﻓﻲ الزي الروسي القروي التقليدي، و بانتظارهم عربة يجرها اثنان من الخيول البيضاء المزينة بالزهور، وبعد مسير نصف ساعة وصلت العربة الى قلب تلك القرية الجميلة القابعة على ضفة بحيرة صغيرة أخذت مياهها من نهر يمر ﻓﻲ الجوار.

هذه القرية الوادعة اختبأت خلف تل صغير و عمل سكانها بالزراعة، يخرج السكان من بيوتهم إلى تلك البحيرة آخذين معهم ماشيتهم حتى تشرب من ماء البحيرة و ترعى على ضفافها، هذه الماشية هي التي تغذي أهل القرية بالحليب واللحوم، كما و يوجد على ضفة هذه البحيرة الصغيرة أجمة من شجر الحور يجلس أهل القرية ﻓﻲ ظلالها ﻓﻲ الصيف، ويفوح من تحت أوراقها رائحة شواء السمك الذي يصطاده السكان من البحيرة بشكل يومي ﻓﻲ الصيف.

ﻓﻲ اليوم الأول توجهت العروس مع صديقاتها الى أحد المقاصف واحتفلوا هناك، كان هذا الاحتفال مقتصراً على النساء فقط فيما يسمى (سهرة البنات) و كما درجت العادات ففي هذه المناسبة تكون العروس حزينة وخجولة

لأنها ستودع حياة العذرية وستدخل الحياة الزوجية.

أما العريس فأيضاً له طقوسه الخاصة، حيث يجتمع أصدقائه يأكلون ويمرحون ومن ثم يذهبون إلى الحمام الروسي، حيث يتم (حمام العريس) وتقوم الأغاني والفرح داخل الحمام وكأنه صالة أفراح، و هذا الحمام الروسي هو عبارة عن غرفة مكسية بخشب الحور من الداخل يتوسطها مدفأة يشتعل بها الحطب وبجانبها دلو من الماء، حيث يُرش الماء على الأحجار الساخنة فيصنع بخاراً كثيفاً ومن ثم يستلقي الشخص على مقاعد خشبية وبعدها يضرب بأغصان الأشجار اليابسة والتي تصبح لينة بعد نقعها مدة في المياه الساخنة، و بحسب ما يعتقد الروس فإن هذه الطريقة في الحمام تطرد السموم من الجسم.

في اليوم التالي وبعد أن أنهى (أنطون) و (كاتيوشا) المراسم السابقة حملتهما من جديد عربة الخيول المزينة وتوجهت بهم إلى بناء مصنوع من خشب الجوز، مكون من طابقين، الطابق الأول مكاتب إدارة القضاء، و الطابق الثاني قسم تسجيل حالات الزواج، والذي لا يشهد حقيقة أية نزاعات بل فقط القبلات وهتافات التحية والمباركة

للعروسين، حيث تعمل السيدة (مارغريتا ايفانوفنا) موظفة شؤون الزواج والتي وقفت أمام الحضور وابتسامتها على وجهها وبدأت كلماتها تقول:

-يا أيها الحاضرون إننا اليوم في تاريخ 9 أيار وهذا اليوم الذي يحتفل فيه شعبنا بعيد النصر على النازية، وهي مناسبة أيضاً لزواج العروسين (كاتيوشا) و(أنطون) فأننا في هذا اليوم الربيعي الذي يملأ بلادنا بالزهور سنبدأ مراسم زواجهما .

توجهت (مارغريتا ايفانوفنا) إلى (كاتيوشا) وقالت :

-كاتيا ابنة إيفان مالاخوف هل توافقين أن تكوني زوجة لأنطون ابن الكسندر كرنكوف .

فقالت كاتيوشا بحسم:

-نعم أنني أقبل به زوجاً لي.

ثم توجهت نحو (أنطون) وبنفس العبارات وبنفس الجواب وبحسم قال:

-نعم، إنني أحبها وستكون لي الحبيبة مدى العمر.

ثم أقسمت (كاتيوشا) أمام الجميع أنها سترعاه وتكون وفية له، تفرح لفرحه وتحزن لحزنه، وأنها ستكون معه

في السراء والضراء .

ثم لبس بعدها العروسان الخواتم التي هي رمز للزواج أمام الحضور، وبعدها وقفت (مارغريتا) أمام الحضور لتعلن زواج العروسين بشكل قانوني، وبعدها تم تبادل القبلات بين العروسين وصفق لهما جميع الحضور.

و بعدها و كما جرت العادة في هكذا مناسبات بدأ الحضور بالهتاف بكلمة (غوركا غوركا)، و على العريس أن يبقى يقبل العروس ما دام الحضور ينادي بصوت عالي (غوركا غوركا).

ثم بعد القبلات والتصفيق تقدم الحضور للتهنئة يرفعون كؤوس الشمبانيا ويشربونها بصحة العروسين و من أحب أن يقدم هدية للعروسين سواء أكانت مبلغ من المال أو هدية عينية كان يقدمها للعروسين مع التهنئة و التمنيات بعمر سعيد و مديد، و الدعاء لهما بالرفاه و البنين .

بعد هذا كله خرج العريس و العروس من المبنى الذي توجد أمامه نافورة جميلة نصب عليها أربعة دلافين تقذف الماء من أفواهها و وقف رجلٌ أمام هذه النافورة حاملاً بيده آلة السكسفون و أخذ يعزف عليها معزوفات شجية.

بهذه الأجواء أمضت (كاتيوشا) و(أنطون) ليلة زفافهم في هذه القرية البسيطة، الرائعة في أهلها وطيبتهم، حيث رقص من رقص منهم وأكل الجميع اللحوم المشوية والفواكه و عزف العم (بيتا)على آلة البيان.

بعدها حمل (أنطون)عروسه على عربة الخيل وتوجه بها الى غرفته ليحقق أحلامه مع حبيبته والتي ينتظرها كل العاشقين.

إن الشعب الروسي له عادات وتقاليد تشبه في الكثير من مناطقها عادات الشرق، والحقيقة الجغرافية لهذا البلد أنه يقع في الشرق و في أوربا كليهما، وإلى فترة غير بعيدة كانت غالبية الأسر محافظة و يتوجب فيها على الفتاة أن تكون ما تزال عذراء ليلة زفافها، و بالمقابل هذه الأيام يوجد الكثير من الشباب الذين يعيشون مع صديقاتهم سنة أو أكثر كأسرة، وبعد أن يعاشروا بعضهم و يتأكدوا من توافق طباعهم يقررون الزواج .

أما بالنسبة إلى (كاتيوشا) و(أنطون) فهما من الناس الذين أكملوا مشوارهم على طريق عادات قريتهم القديمة وحافظوا على أن لا يلمسوا أجساد بعضهم إلا في ليلة

زفافهما.

دامت هذه الرحلة مدة ثلاثة أيام كانت كلها أيام فرح و احتفال، وبعدها عاد الزوجان إلى المدينة بعد حفل زفاف رائع بقي في ذاكرة كل من شارك فيه.

عند عودة الخالة (دانيلئيدا) إلى العمل حدثت (غريغوري) قائلة:

-لم أكن يوماً أتخيل أن هذه الطفلة ستتزوج بهذه السرعة و من يعلم، فقد تنجب أطفالاً في القريب المنظور.

-أخبريني عن مراسم زفاف (كاتيوشا) يا (دانيلئيدا ايفانوفنا) و هل جرى كل شيء على ما يرام في القرية؟

-أتدري يا (غريغوري) أن الأخلاق والتربية هما عماد الأسرة، وحب الأنسان للآخرين يعطيه جمالاً ويزيده وقارا، إنني أُلاحظ أن ابن القرية لم يزل على أخلاقه وتربيته الحسنة بعكس ابن المدينة الذي غيرته أهوائه و أسرته ملذات المدن، تصور يا (غريغوري) على مستوى الأفراح أصبحت كلها في المدن تشبه بعضها و يتنافس المتزوجون فيما بينهم بالبذخ فقط، أما في القرية فقد حافظ الناس على عاداتهم وتقاليدهم الجميلة، تخيل يا

(غريغوري) في عرس (كاتيوشا) رأيت هذا العرس القروي الذي لم يتخلَ عن عاداته البسيطة و الطيبة و التي تحمل الفرح و السعادة للعروسين و للحضور.

الفصل العاشر:

مضت الأيام و التحق (أنطون) بالخدمة العسكرية الإلزامية، وامست (كاتيوشا) لا تعرف الطعام ولا الشراب و خافت أن تذبل أوراقها كالوردة إذا ما داهمها الصقيع فأهلك أوراقها .

كانت تنتظر عودة (أنطون) بالأيام والساعات وتتخيل نفسها ترتمي في أحضانه وهو يفتح باب المنزل معلناً عودته إلى حبيبته و إنهائه الخدمة الإلزامية .

في هذه الفترة العصيبة على (كاتيوشا) بقيت خالتها و (غريغوري) إلى جانبها، و خاصة كان لـ(غريغوري) دور كبير أثناء فترة تواجدها في العمل في نادي (داي آند نايت)حيث كان يسليها ويستمع إليها ويعطيها الأمل بعودة (أنطون) القريبة.

و كالعادة كان (غريغوري) متواجداً في قسم الاستقبال يسلي (كاتيوشا) حينما دخلت سيدته (نتالي) إلى النادي و طلبت منه أن يحضر إليها في مكتب الإدارة، اعتذر من (كاتيوشا) وذهب بسرعة إلى سيدته في مكتبها.

بدأت (نتالي) الكلام بسؤالها:

-كيف وضع العمل اليوم في النادي يا (غريغوري)؟

كانت تسأله وهي تنظر الى شاشات المراقبة في النادي .

فقال لها:

-أن اليوم هو يوم الصيانة الدورية في النادي و في يوم الصيانة الدورية يبقى النادي مقفلاً لحين إتمام الأعمال فيفتتح النادي متأخراً عن موعده..

-إذاً هذا هو السبب في أنني لم أرَ ذلك (السعيد) عبر الشاشة، حسناً يا (غريغوري) أحضر لي كأساً من الشاي الأخضر إذا سمحت.

لاحظ (غريغوري) أن السيدة (نتالي) قد غيرت كثيراً من عاداتها منذ ذلك اليوم الذي اصطدمت فيه وجهاً لوجه بـ(السعيد)، حيث أنها أصبحت تكثر من زياراتها إلى النادي، و أصبحت زياراتها بشكل يومي تقريباً بعد أن كانت تأتي إلى النادي مرة واحدة في كل شهر تقريباً، فبالمقارنة بالفترات السابقة حيث كانت زياراتها للنادي قليلة لأن عملها الرئيسي ينحصر في الاستيراد والتصدير من أوربا ، كما وكانت ترأس و تدير جمعيةً خيرية تساعد

الأطفال في مناطق النزاعات الحربية، كما و كانت تملك كذلك شركة لبيع السيارات الفخمة و لأجل هذه الانشغالات فقد كان النادي بالنسبة لها نشاطاً ثانوياً، تأتي إليه فقط من أجل تسليتها، ولتتيح فرصة العمل لبعض المحتاجين في المنطقة.

أصبحت السيدة (نتالي) تمضي وقتها في النادي وخصوصاً ليلة السبت والأحد حيث حتماً يكون (السعيد) موجوداً فيهما بالنادي، وتبقى تراقبه عبر الشاشات بعناية فلا تكاد أنظارها تتركه.

لاحظ (أندريه) تردد السيدة (نتالي) المستمر الى النادي وكان هذا ما قد أزعجه تماماً، لأنه ظن أن السيدة (نتالي) لديها شكوك في نزاهته، مما جعل (أندريه) يغضب و يظن أنها تأتي لتراقب عمله، حتى أنه أتى إلى السيدة (نتالي) ذات مرة غاضباً و قال لها:

-إن كنتِ تشكين بأمانتي وإخلاصي في العمل فاسمحي لي أن أقدم لكِ استقالتي.

كانت السيدة (نتالي) تنظر اليه و هو يكلمها محتداً و هي تضع يدها تحت ذقنها، ثم فاجأت (أندريه) بجوابها

حين قالت له:

-وهل تظن أنك لو قدمت لي طلب استقالتك أنني سأرفضه؟ فلو كنت تريد ذلك فعلاً فأنني سأوافق على طلبك مباشرة من دون تردد، فأنا أتحمل منك تصرفاتك من أجل والدك الذي هو صديقٌ لوالدي ولولا ذلك ما كنت أتحمل تصرفاتك معي طوال هذه المدة.

كانت السيدة (نتالي) أخذت من (أندريه) موقفاً غير ودود بعد تلك المشكلة التي حصلت بينهما في مناسبة عيد المرأة، يوم ذهب (أندريه) إلى ذلك المطعم الفخم، وحجز الصالة لأجلها ولم تأتي، فإنه بعد ذلك أتى إلى النادي ودارت مشاداة كلامية بينه وبين (نتالي)، حيث دخل النادي يومها غاضباً وأخذ يرمي الشتائم بصوتٍ عال، و ما زاد الأمر إحراجاً أن ذلك قد تم على مسمع من الزبائن.

وقالت (نتالي) له في حينها:

-أتظن أنك بهكذا أخلاق ستجد امرأة لتقبل مشاركتك هذه المناسبة؟ فاعلم يا هذا أنه حتى البنت المتسولة في الشوارع قد لا ترضى بمثلك ..

أخذت تزيد في تهزيئه دون توقف، لولا سماعها لصوت من

خلفها يقول لها بهدوء :

-وهل تعرف الجميلات الصراخ؟ وهل للشفاه الجميلة أن تتفوه بكلمات بذيئة؟ على كل حال اهدؤوا أرجوكم فأنت صاحبة النادي و هو المدير ولا يجوز أن يرى زبائنكم مشاكلكم الخاصة.

كان هذا الرجل الذي يتكلم هو(السعيد) نظرت إليه (نتالي) وهو يتكلم و تظاهرت أنها لم تبالي به ولا بكلماته .

(غريغوري) و الذي كان حاضراً على هذه الحادثة أصبح على يقين بأن سيدته (نتالي) قد وقعت في حب (السعيد) حيث أصبحت تكثر مراقبته وكأنها تنتظر فرصة لتلتقي به، خمن في نفسه (ولما لا؟ إن سيدتي في منتصف عقدها الثالث من العمر و بهذا العمر يكتمل سن النضوج عند المرأة و تصبح على معرفة بمن تحبه حباً حقيقياً).

وفي إحدى المرات وبينما كانت (نتالي) تتجول في النادي وتتفقد الصالة جاء وجهها بوجه (السعيد) صدفةً.

فقالت له:

-آه، هل هذا أنت؟

فأجابها:

-وماذا تعنين بكلمة هذا أنت يا سيدتي؟

-معلوماتي أنك لا تترك دوراً لأحد لأن يضع أغاني لمن يحب، فأنت دائماً تكون مسيطراً على هذه الظاهرة، و نحن لا نحب أن نرفض لك طلباً بما أنك زبون دائم لهذا النادي، مع أن ما تفعله قد يزعج البعض وقد نخسرهم كزبائن لهذا السبب.

فأجابها مبتسماً:

-يا سيدتي مما لاشك فيه أنكِ مخطئة، فانا فقط أضع الأغنيات التي يطلبها مني نزلاء الصالة، ولكن ولأنني زبون دائم يعتقد البعض بأنني موظف في هذا النادي فيطلبون مني أن أضع الأغنيات التي يريدونها، ولأنني لا أحب أن أرد أحداً خائباً، أتقدم من موظف الأجهزة الصوتية وأقول له أن يشغل ما طلبه مني الزبائن من أغنيات، فتعتقدين أنني من أسيطر على أذواق الزبائن، وهم يعتقدون أنني موظف في الصالة، وأنا ليس لدي مشكلة في هذا الموضوع لأنني شخصٌ يحب التواضع والبساطة في حياتيه مع كل من هم حوله.

نظرت إليه السيدة (نتالي) باحترام وقالت له:

-أطلب العفو منك يا أيها السيد، لقد أوضحت لي ما لم أكن أعلمه، شكراً لك على كل الأحوال، فأنت شخص يملك من التواضع ما يكفي حتى تكون أحد أصدقاء هذا النادي.

سُرَّ (السعيد) لسماع هذا الكلام من مالكة النادي مما شجعه على أن يقول لها:

-سيدتي هل تسمحين لي برقم هاتفكِ؟

-أنا آسفة فمن عادتي أن لا أعطي رقمي البتة و لكن إن أردت أعطني رقم هاتفك وأنا سأكلمك عندما تسنح لي الفرصة.

فقال لها (السعيد) مع الابتسامة الدائمة و التي لا تفارقه:

-هذا رقمي سيدتي، ولكن لي رجاء، إن اردتِ أن ترميه فلا ترميه في المرحاض، فهو لا يطيق رائحة المراحيض.

ابتسمت (نتالي) وقالت له:

-حسناً لا تقلق سأحتفظ به في محفظتي الشخصية.

بعد هذا التعارف السريع عاد (السعيد) إلى الصالة ليكمل لهوه وخمره، والسيدة (نتالي)خرجت من النادي على الفور

وطلبت من (غريغوري) أن يرافقها إلى البيت، كانت (نتالي) حسب عادتها بالحديث مع (غريغوري) تتكلم بطريقة تتحدث فيها عن شيء ما ، و في ذهنها أن تأخذ معلومة عن شيء آخر تماماً ، وهي تظن أن (غريغوري) لا يفهمها مع أنه كان يفهمها تماماً ، فيعطيها رأيه في الشيء الذي تريده أيضاً بطريقة لا تدعها تشعر أنه قد فهم عليها. دخلت (نتالي) منزلها و توجهت الى المسبح الموجود داخل قصرها وأمسكت بكريات مطاطية صغيرة وأخذت ترمي بها إلى الماء والفرحة تملأ قلبها ، شعر (غريغوري) أنها تريد أن تكلمه وتبوح له عن سبب فرحتها ولكن كبريائها كان يمنعها ، حاول أن يشجعها على الكلام مع أنه كان خائفاً من ردود أفعالها ، لكنه في النهاية تجرأ و تكلم:

-أراكِ يا سيدتي على غير عادتكِ.

نظرت إليه وقالت:

-ماذا تقصد يا (غريغوري)؟

حقيقة عندما سمع جوابها انتابه الخوف من أن تقوم بتوبيخه، كعادتها عندما يتكلم أو يفعل شيء تكون هي غير راضية عنه.

قال (غريغوري):

-آسفٌ يا سيدتي أذا أزعجتكِ بكلامي، ولكنني أقصد أنني أشعر بكِ سعيدة من الداخل، وهذا شيء يفرح قلبي، فإنني عندما أراكِ تبتسمين فكأن كنوز الدنيا وضعت أمامي لأنني قل ما أراكِ على هذه الحالة.

فقالت له:

-وما هو سبب سعادتي الآن حسب ما ترى يا (غريغوري)؟

كان يعلم أن سبب سعادتها كان لقائها بـ(السعيد) ولكنه لم يشئ أن يحرجها فقال لها:

-لا أعلم يا سيدتي، ولكني أظن أنكِ بدأتِ تفكرين بمستقبلك ونفسك، لأنكِ دائماً تفكرين بكل الناس ولا أحد يفكر بكِ، فأني اليوم أراكِ في قمة الروعة يا سيدتي، فأنتِ ومنذ أن خرجتِ من النادي وأنا أرى بسمة على شفتيكِ لم أعهدها من قبل .

كان (غريغوري) يشعر أن سيدته (نتالي) تسأله لتستجره للحديث عن (السعيد) فكان مجمل كلامها يدور حوله، حتى أن (غريغوري) قد قرر أن يقول لها و بكل صراحة أنه شعر أن البسمة ارتسمت على وجهها منذ أن قابلت

السعيد.

لكن (نتالي) بادرته بالسؤال:

-قل لي يا (غريغوري) هل تعرف هذا الشخص أقصد (السعيد) جيداً ؟

فقال لها:

-لا يا سيدتي، كل ما علمته عنه أنه طوال الوقت يحتفل ولا يترك الكأس من يده، وبعد أن نغلق النادي لا أراه، فأنني لا أعلم عن حياته خارج النادي شيئاً.

قالت له (نتالي):

-أتعلم يا (غريغوري) أشعر و كأنني كل العمر أحمل بين ضلوعي قلباً مات صاحبه منذ زمن، و عيوناً أشعر بها جفت للأبد من كثرة ما سال منها من الدموع..

الفصل الحادي عشر:

في ليلة صيفية من ليالي سانت بطرسبورغ الجميلة كان (غريغوري) ينظف سيارته أمام النادي فرأى من بعيد ملاكاً جميلاً يمشي نحوه، كانت فتاة في كامل حلتها، في ثوبٍ أنيق يلتف على جسدها الفاتن و بتسريحة شعر رائعة متوافقة مع ثوبها، لم يعرف غريغوري من هي من بعيد و عندما اقتربت فغر فاهه فإذ بها سيدته (نتالي)، فبادرته بالسؤال بعدما دنت منه:

-(غريغوري) ما بالك؟ لماذا تحدق بي هكذا؟

هز (غريغوري) رأسه وكأنه استيقظ من حلمٍ وقال لها:

-عذراً سيدتي فأنا لم أعرفكِ من بعيد .

كانت على وجهها ابتسامة تزيد من حسنها وجمالها، أدرك (غريغوري) حينها أنها لم ترتدي هذا اللباس الفاخر عن عبث، فمن المؤكد أنه لهذا الرجل الذي سرق عقلها وخاصة بعد لقائها معه آخر مرة .

أخذ (غريغوري) يسرع في تنظيف السيارة لعل سيدته (نتالي) قد تحتاجه في أي أمر طارئ، وخاصة أنها ومنذ أسبوع كانت قد طردت (أندريه) مدير النادي من العمل

بعد خلاف أدى الى مشاداة بينهما وقام (أندريه) في أثناء ذلك بإهانتها، فلم تعد تطيق صبراً على تصرفاته فأمرته أن يقدم استقالته و طلبت من الحراس أن يخرجوه خارج النادي، اضطرت نتالي لهذا التصرف على إثر الإهانة التي وجهها لها (أندريه) على الرغم من أن علاقة والدها مع والد (أندريه) متينة جداً، و(نتالي) و (أندريه) أصدقاء منذ الطفولة.

ولكن (أندريه) في الحقيقة كان رديء الطبع وصعب الأطوار، وكان قاسياً على العمال، كما ويعامل الزبائن بشكل فظ .

لاحظ الجميع أن (نتالي) تتردد على النادي بشكل مستمر، فالمرأة عندما تعشق تكون سريعة باتخاذ قراراتها، وفي الواقع فهي لم ترتدي ذلك اللباس إلا لأجل ذلك الرجل الذي يسمى (السعيد) ولكن لسوء حظها وحظه أنه لم يكن موجوداً في تلك الساعة في النادي.

ما أن دخل (غريغوري) المكتب ولحق بسيدته حتى وجد امرأة ليست كتلك التي عبرت من جانبه قبل نصف ساعة، وكأن شيء ما قد حرف شفاهها ونزع منها تلك البسمة

المرتسمة عندما دخلت النادي .
خرج (غريغوري) من المكتب كالسارق وأقفل الباب خلفه بكل هدوء حتى لا يكون سبباً في إخراج نزقها والذي كانت تكتمه بعينيها المشتعلتين غضباً.
بينما كان يقف عند مدخل النادي خرجت سيدته (نتالي) مسرعة من النادي وقالت له:
-(غريغوري) تعال معي.
أسرعت ودخلت سيارتها وطلبت منه أن يوصلها الى نادي (وان وان) والذي يقع على مسافة ليست ببعيدة عن نادي (الدي آند نايت).
دخلا النادي وكان مزدحماً جداً بالزبائن الساهرين ألقت (نتالي) نظرة فيه، ثم قالت لـ (غريغوري):
-خذني إلى البيت .
توجه (غريغوري) بها الى المنزل وكان يسترق النظر عبر المرآة حيث كان يرى من خلالها أن سيدته تكاد تأكل نفسها من الغضب .
إن شعوره كان يحدثه أن (السعيد) إذا لم يكن قد أصابه أي مكروه سيكون قد أتى إلى النادي ساعتها، لعلمه أنه

اعتاد على النادي بل و في الفترة الأخيرة أصبح يكاد لا يمر يوم لا يكون (السعيد) فيه من بين الساهرين .

لذا قرر أن يتجرأ ويتكلم مع سيدته (نتالي) فقال لها :

-عفواً سيدتي على الإزعاج، و أرجو أن لا تفهميني بشكل خاطئ .

نظرت إليه بتعجب وقالت:

-ماذا تريد أن تقول؟ لقد أخفتني.

-يا سيدتي أنا مهما فعلت فخيركِ وجميلكِ لا يرد ، ولكنني أرغب أن تقبلي دعوتي على كأس من النبيذ على حسابي.

ابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت:

-حسناً يا (غريغوري) و لكن أين ؟

-في نادينا (الدي آند نايت).

استغربت وقالت شبه صارخة:

-ماذا!! الآن كنا هناك وأنا لم أرغب البقاء فيه .

-أرجوكِ سيدتي لا ترفضي طلبي واقبلي دعوتي .

نظرت من نافذة السيارة وقالت:

-حسناً ولكنني لا أريدك أن تدفع فنادينا غالٍ جداً.

أثناء الطريق إلى النادي لم يكن (غريغوري) يعلم ما الذي كان يشده أن يذهب بـ(نتالي) إلى النادي، في كل الأحوال لقد ترك إحساسه يقوده إلى النادي، و كان يكن في قلبه كل الشكر لسيدته والتي تواضعت وقبلت دعوته .

بعد أن وصلا إلى النادي توجه (غريغوري) مسرعاً نحو باب السيارة حتى يفتحه لنتالي، لم تدري (نتالي) ماذا حصل لـ(غريغوري) بعدها، حيث أغلق باب السيارة مرتين كاد فيها أن يجرح يد سيدته، حتى صرخت بوجهه:

-(غريغوري) ما بك؟

أخفض رأسه باتجاه نافذة السيارة حيث لم تزل تجلس (نتالي) وقال لها:

- أعذريني سيدتي، لا أدري لماذا توجست من ذلك الرجل الضخم الواقف على الناصية، أخشى أن يكون مضمراً لشيء ما.

فقالت (نتالي):

- أيوه عن أي رجل تتكلم أيها الأبله .

نظر (غريغوري) خلفه، فلمح (السعيد) قد دخل إلى النادي فقال:

-حمداً لله لقد رحل الرجل المشبوه، تفضلي يا سيدتي بالنزول و أكرر أسفي، فتصرفي كان بدافع الخوف عليك لا أكثر..

في الحقيقة لم يكن ما أخبره (غريغوري) لـ(نتالي) صحيحاً، فبينما كان يفتح باب السيارة رأى (السعيد) يدخل، ولم يكن يريده أن يلتقي مع (نتالي) خارج النادي، لعلمه أنه إذا التقيا خارج النادي لن ينجح السيناريو الذي كان يعده.

دخلا بعدها المكتب وطلب (غريغوري) من الموظفين أن يجهزوا لهما أجمل مكان في القاعة، وأن يضعوا موسيقى هادئة، وأن لا يقوم أحد من الموظفين بأي حركة أمام الحضور تدل على أن السيدة (نتالي) هي صاحبة النادي .

دخلا القاعة وعلى الفور رافقهما مدير القاعة و الذي من شدة حماسته كاد يصرخ من الفرح و أخذ يهرول أمامهما ولما وصل الى طاولتهما تعثرت قدمه وكاد يقع على الأرض.

سكب النادل النبيذ في كأسين وبقي (غريغوري) يتظاهر وكأنه لم يفهم شيئاً مع أنه أدرك تماماً ما الذي تفكر به

سيدته .

كانت (نتالي) تنظر إلى (السعيد) وكأنها تقول لنفسها (لن أعود إلى الخلف، سأنسى كل شيء ما عداك و سأصل إليك، سأرى كيف صنعت هذه السعادة التي تملكها، ومن أنت، وهل تستطيع أن تكسر جبروتي الأنثوية).

كان قلب (نتالي) قد استسلم للحب لكن كبريائها كان يقف لها بالمرصاد ويمنعها من أن تظهر ما يخفيه قلبها.

كان (السعيد) يراقب كل حركات (نتالي) و في البداية و بدافع من كبريائه تظاهر بالبرود و لكن و في النهاية تقدم من الطاولة التي كانت (نتالي) تجلس عليها وقال:

-عفواً سيدتي هل تسمحين لي بهذه الرقصة معكِ ؟

كانت نتالي وكأنها تنتظر منه هذه الكلمة فهزت برأسها وأجابته :

-طبعاً و بكل سرور.

أمسك (السعيد) بيد (نتالي) وأخذها الى ساحة الرقص وكانت عيناه شاخصتين بوجه و جسد (نتالي) الرائع .

انتهت موسيقى الرقص الهادئة، لتنتقل الموسيقى الى فقرة الرقص الإسباني و التي يدعونها (الفلامنغو) و يشتهر هذا الرقص بأن به نوعاً من التحدي بين الرجل والمرأة، وخصوصية هذا الرقص هو صوت طرق نعال الأحذية على الأرض، حيث تفاجئ الجميع بأن السيدة (نتالي) تجيد هذه الرقصة بشكل جيد جداً، أكثر من الإسبان أنفسهم، كما و كان السعيد يجيد هذه الرقصة ولربما أكثر منها، وبقيا وحدهما في ساحة الرقص يمتعون الحضور برقصتهم أكثر من خمسة عشر دقيقة وبعد انتهاء الرقصة صفق جميع الحضور لهما حتى أن البعض وقفوا ينادون: برافو برافو .

أمسك السعيد بيدها وقبلها ثم رافقها الى طاولتها، حينها استأذن (غريغوري) منهما و ترك الطاولة، بعد أن أعد بعض الترتيبات، حيث وجه النادل بوضع كأس نظيفة للسعيد وسكب النبيذ له و لنتالي، و قبل أن يترك مكانه على الطاولة ،قال (غريغوري) للسعيد:

-يا سيدي إنك تجيد الرقص بشكل ممتاز، وأنا أشد على عزيمتك، فإن معلمتي تحب الرقص كثيراً.

أجابه السعيد:

-نعم بكل تأكيد، يجب في هذه الليلة أن نرقص طوال الليل لأنني اليوم أحتفل بعيد ميلاد ابني.

نظرت نتالي إلى (غريغوري) نظرة أحس فيها الكثير من الرقة و كذلك الخجل، و إذ به لا يدري، هل هو قام بعمل صحيح أم كان قد أحرج سيدته بتصرفاته، في الحقيقة لم يكن يعلم، ولكن المهم عنده أنه استطاع أن يجمع سيدته مع هذا (السعيد) عله يخرجها من الحزن الذي هي فيه.

يقولون إن الحب يزيد من رقة الرجل ويقلل من مخاوف المرأة، وفي الحقيقة هذا ما كان قد لاحظه (غريغوري) فذلك السعيد الذي كان ضجيجه يملئ القاعة وصوت ضحكاته يطغى على صوت الإذاعة، كان أمام سيدته (نتالي) رقيقاً متواضعاً خجولاً، كان حتى عندما يبتسم يكاد فقط يحرك شفاهه، أن تلك الليلة كانت وكأنها مخصصة لهما وحدهما، فكانا محط أنظار كل الحضور، أما هما فلم يريا إلا بعضهما.

وهكذا استمر السهر و (نتالي) و السعيد لا يشعران

بالوقت و حين مضت عدة ساعات، استأذنت (نتالي) قائلة:

-لقد سررت بمعرفتك، كانت ليلة رائعة والآن اسمح لي بالمغادرة .

فقال لها:

-هل تسمحين لي بمرافقتك ؟

فأجابته متأسفة:

-لا أستطيع.

-أتمنى أن لا تكون هذه آخر ليلة أراك فيها.

فقالت له:

-هل أنت لا ترى النساء إلا في الليل ؟

قال لها:

-عفواً لقد أسئت التعبير، على كلاً في يوم الأحد المقبل سيقام حفل باليه على مسرح (المارييننسكي) سأشتري بطاقتين، أرجو أن لا ترفضي طلبي.

- لن أعدك بهذا.

-هل هذا يعني أنني لن أراكِ بعد اليوم؟

- ولم لا ، فأنا موجودة هنا بشكل دائم.

- أنت قلتِ أنكِ لا تقبلين دعوات الليل، لذا عرضت عليكِ

دعوة في النهار .

ابتسمت (نتالي) وقالت:

-حسناً إن رقم هاتفك معي، سأخبرك غداً إذا ما سأتمكن من قبول دعوتك.

ظلت ابتسامة (نتالي) ترافقها في تلك الليلة حتى وصلت إلى بيتها، وأعتقد (غريغوري) أنها ستبقى معها حتى في أحلامها، لولا والدها والذي كان ينتظرها داخل المنزل حيث لاحظ (غريغوري) من نظراته إليها أنه غاضب لأمر ما، لم يعلم ما هو ولكنه أعتقد أن (أندريه) له علاقة بذلك.

في أثناء طريقه إلى بيته كان (غريغوري) يفكر كم كان هذا اللقاء مهماً بالنسبة لـ(نتالي)، فقد أعتقد أنها وجدت الشخص الذي سيخرجها من بؤسها الذي تعيش فيه، ومن بحر وحدتها التي كادت أن تقطع أنفاسها.

كذلك نتالي لم تستطع أن لا تفكر بما حصل معها، فلم يفارقها إحساسها بيد السعيد و الذي ما أن لمس يدها حين دعاها للرقص حالاً، فأشعرها بالحنان والاهتمام، و كانت تتبادل النظرات معه وكأنهما يتحاوران

ويتخاصمان ويتصالحان .

إن (نتالي) مع كل مزاجها الصعب إلا أنها في أعماقها كانت فتاة رومانسية تبحث عن الحب و لكن هيهات لها أن تقبله بسهولة.

الفصل الثاني عشر:

في صباح يوم الأحد و هو يوم العطلة، توجه (غريغوري) إلى الكنيسة ليضيء شمعة لمعلمته، و ليرسم إشارة الصليب على صدره أمام أيقونة العذراء. دخل (غريغوري) و اتجه إلى الجانب الأيمن من الطريق حيث يقع دكان صغير لبيع الشموع، تقف فيه امرأة عجوز تضع على رأسها شالاً أسود، طلب منها شمعة وما إن التفت بوجهه حتى رأى تلك الراهبة التي تعرَّفَ إليها في المرة السابقة فقالت له:

-هل أتيت هذه المرة كذلك لتصلي لأجلها ؟

- نعم هذا صحيح يا أختاه.

فقالت له:

-اذهب إلى الزاوية اليمنى وامسح شمعتها بالزيت المقدس.

أخذ الشمعة وذهب مع الراهبة بعدما طلبت منه أن يتبعها.

قالت له:

-تعال معي حتى نصلي لأجلها، وسأطلب من الخوري لعله يأتي لنا بصورتها ويصلي معنا و يتلو دعاءً لها، فإنني تعاطفت مع تلك السيدة لا أعلم لماذا، كما يجب علينا أن

نأخذ الماء الذي صلينا عليه ونرشه عند باب بيتها أو مكان عملها .

-حسناً و متى سيكون هذا؟

-ليس قبل شهر من الآن.

فكر (غريغوري) في نفسه هل يعقل أن (أندريه) له علاقة بهذا؟ هل هو راغبٌ بأن يؤذي (نتالي) إلى هذا الحد؟ هل هو حقاً يضمر شيئاً في داخله؟ و مع أنه لا يؤمن كثيراً بهذه الأمور، ولكنها أخذت حيزاً كبيراً من تفكيره، مخافة أن تؤثر سلباً على معلمته فيما لو علمت بها.

أنهى صلاته مع الراهبة وقرر أن لا يفكر كثيراً بهذا الموضوع، لأنه يجب أن يذهب مع عائلته الى حديقة النوافير (بيتر كوف).

إن مدينة (سان بطرسبورغ) مشهورةٌ بجمالها وحدائقها ولكن من أروع ما ازدانت به هذه المدينة هو القصر الصيفي في مدينة (بيتر كوف)، حيث كان يجلس القيصر وعائلته وحاشيته في سفينتهم والتي كانت تنقلهم في أواسط شهر أيار في رحلة تستغرق أربعين دقيقة ليصلوا إلى أحد أجمل القصور على الإطلاق في العالم، ثم كان

ينقلهم قاربٌ في جدول ليصلوا إلى النافورة الرئيسية المصممة بطريقة فنية تسحر الناظرين وهي عبارة عن تمثال ضخم لرجل يتصارع مع أسد، حيث كان هذا التمثال يمثل شمشون الجبار وهو يفتح فك الأسد حتى تنفر المياه منه حيث يصل ارتفاع المياه حين تخرج من فم الأسد الى ستة أمتار، كان بطرس الأكبر هو من وضع حجر الأساس لهذا القصر بمناسبة انتصاره على السويديين في معركة (بالتافا) الشهيرة، لذا تقرر أن تكون هذه النافورة تمثالاً لشمشون رمز القوة.

يوجد في هذا القصر تسعون نافورة تعمل جميعها على نظام جداولٍ مائيةٍ مُحكم، حيث يُجر الماء من الخليج بانحدار يجعل ضغط الماء كافياً لجميع النوافير التسعين الموجودة، حيث تبدأ النافورة الأولى بضخ المياه في الساعة الخامسة صباحاً ويستغرق من الوقت حوالي الست ساعات لتعلو المياه وتصل إلى باقي النوافير كلها، وكان لحدائق القصر أربع مداخل وكل مدخل عبارة عن مدرجات يصل عدد درجات كل مدرج منها إلى 150درجة، وبعد المدرج الرئيسي يطل القصر الصيفي الذي يسحر الناظرين لما

يمثله من قمة في الإبداع والتصميم المعماري النادر جداً في العالم حيث يعتبر هذا القصر وحدائقه من أولى محطات السواح في المدينة، كما و يعتبر هذا القصر من أجمل المعالم السياحية في أوربا كلها على الإطلاق .

إن محافظة لينينغراد والتي كانت إلى ما قبل 1 أغسطس من عام 1927 تسمى باسم مدينة سان بطرسبورغ، تبلغ مساحتها 84 ألف كيلومتر مربع، وهي أول محافظة أسست في الإتحاد السوفييتي، وحددت حدودها بشكل نهائي في نوفمبر عام 1944 ولها حدود مع فنلندا و أستونيا ، وفي هذه المحافظة تقع أكبر بحيرة في أوربا ويشق أرضها خمسة أنهار، كما ويوجد فيها أكثف وأغنى غابات العالم، يقطن سكانها في 16مدينة وعشرات البلدات و مئات القرى الصغيرة.

بينما كان (غريغوري) و عائلته يقضيان وقتاً جميلاً في مدينة (بيتركوف)، كان (السعيد) و (نتالي) قد ذهبا إلى دار الأوبرا و ذلك لمشاهدة مسرحية الباليه (روسلان ولودميلا)، و روسلان هو ذلك الفارس الذي تعود جذوره إلى القفقاز حيث أحب ابنة دووق كييف و التي خطفها

الساحر (تشيرنومور) لتبدأ معركة هذا (الباغاتير) أي العملاق مع هذا الساحر الشرير، و لعل كاتب الملحمة الشعرية و التي أُخذت عنها المسرحية -الشاعر الروسي العظيم (بوشكين) - أراد باختياره لهذا البطل، أن ينصف شعباً جباراً كريماً ومحارباً وصاحب تراثٍ عريق، ألا و هو شعب الشركس الخالد .

حملت قصة (روسلان ولودميلا) والتي خبأت تحت معانيها الأدبية والرومانسية معاني سياسية، مهمة إيصال صوت هذا الشعب الى آذان النبلاء والأمراء من حاشية القيصر، الذي اختار (بوشكين) العبقري لأن يكون شاعر القصر.

وفي القرن التاسع عشر صاغ (غلينكا) هذه الأشعار بنص أوبرالي أعجب الكثير من الكتاب والأدباء والموسيقيين وعلى رأسهم الموسيقار العظيم (تشيكوفسكي).

تبدأ المسرحية بأن يعزف فريق الأوركسترا بالكامل في الوتريات وآلات النفخ النحاسية وآلات الإيقاع و كأنها ترسم لوحة ليلة زفاف (روسلان) و (لودميلا)، و أثناء حفلة الزفاف يخطف الساحر (لودميلا) من (روسلان) لتبدأ معارك (روسلان) مع عدد من منافسيه و مع كائنات

أسطورية غريبة حتى يهزم الساحر (تشيرنومور) في المعركة الأخيرة ويسترد الفارس عروسه لتختتم بذلك حفلة الأوبرا.

صفق جميع الحضور وقوفاً وطال التصفيق بينما رئيس الأوركسترا كان يقدم راقصة الباليه التي قامت بدور (لودميلا) وراقص الباليه الذي قام بدور (روسلان) وباقي الراقصين وعازفي الفرقة، واستمر التقديم لأكثر من نصف ساعة نظراً للعدد الكبير من الراقصين و العازفين الذين شاركوا في العمل، و نظراً لطول و حرارة تصفيق الحضور، إلا أن (نتالي) و(السعيد) لم يشعرا بالوقت، حيث كانا و كأنهما يسرحان في عالم آخر، عالم لا يسكنه سوى حبهما.

خرج جميع الحضور وكاد (السعيد) و (نتالي) ينسيان نفسيهما لولا صوت الجرس الذي قرع بقوة.

تنهدت (نتالي) قائلة:

-و ها قد انتصر البطل (روسلان) و بنا مع (لودميلا) عش حبهما..

نظر (السعيد) و الذي كان قد أخبر (نتالي) أن اسمه

الحقيقي (سيرغي) في عيون (نتالي) قائلاً:

-و نحن متى سنبني عشنا؟

احمرت خدود (نتالي) خجلاً و سحبت يدها من يد (سيرغي) حيث لم تنتبه أنها أبقتها في يده طوال فترة عرض المسرحية.

بعد أن خرجا إلى الشارع تفاجئا بزخة مطر غزيرة بللتهما بشدة، فركض (سيرغي) بسرعة إلى السيارة وقال للسائق:

-اذهب بنا إلى المطعم الأحمر.

قال ذلك دون أن يستشير (نتالي)، والتي كانت منشغلة بالماء الذي بلل فستانها الحريري، والذي التصق على جسدها ليرسم جسدها وكأنه تمثالٌ رائعٌ من أعمال النحات (مايكل أنجلو).

تفاجأت (نتالي) قائلة:

-إلى أين تقول للسائق أن يذهب وأنا على تلك الحالة من البلل؟!

كانت (نتالي) مرتبكة، ما الذي حدث؟ وما هذه السخافة؟ دون أن يسألها يقرر نيابة عنها مخططاتها.

لكنها مع ذلك قالت له:

-على كلاً حسناً يا (سيرغي)، ولكن علي أن أبدل ملابسي أولاً.

فأجابها:

-بكل تأكيد، سأذهب معكِ وأنتظركِ حتى تستبدلين ملابسك، وأرجو منكِ يا أميرتي أن تسامحيني على تسرعي وأن تقبلي دعوتي للعشاء هذه الليلة .

فقالت (نتالي):

-من الواضح يا (سيرغي) أنك طمّاعٌ، فأنت تريد كل شيء في ليلة واحدة، لما لا تترك شيئاً للأيام الآتية.

-اسمحي لي أن أقول لكِ أن الكلام و الجلوس معك هو متعةٌ لا أملُّ و لا أشبع منها، وربما أحتاج العمر بأكمله لأمضيه معك يا أميرة الأميرات، حسناً هيا بنا إلى منزلك يا سيدتي، فلم يعد معنا المزيد من الوقت.

ابتسمت نتالي وهزت برأسها موافقة على ما قاله (سيرغي) و توجهوا بالسيارة إلى منزل (نتالي).

الفصل الثالث عشر:

في أثناء فترة غياب (أنطون) في الخدمة العسكرية كثيراً ما كانت (كاتيوشا) تتذكر المواقف المشتركة بينهما، و كثيراً ما تذكرت تلك الحادثة التي حصلت أثناء عودتهما من القرية، فبينما كانا في طريقهما إلى بيت (أنطون) والذي تركته له أمه كان (أنطون) صامتاً، حيث كانت افكاره تأخذه إلى بعيد، مما أثار ملاحظة (كاتيوشا) فقالت له:

-ما بك يا حبيبي، إنني أراك مهموماً ومنشغلاً، هذه الليلة ستكون أول ليلة لنا في بيتنا ولا يفترض أن تكون على هذه الحالة، بدأت أشعر وكأنك نادمٌ على زواجنا.

التفت (أنطون) إلى حبيبته قائلاً:

-لا يا حبيبتي فأنتِ أجمل ما أعطاني إياه الرب في حياتي، ولكنني أفكر بأمر ما، فأحزاني تأخذني إلى أمي وأرغب أن أزور قبرها اليوم قبل أن أدخل البيت.

نظرت إليه (كاتيوشا) متفهمة و قالت له:

-حسناً يا حبيبي، نذهب فور وصولنا إلى قبرها ونضع

الورد عليه، و نصلي لأجل راحة روحها، لعلها تكون بداية مباركة لزواجنا .

فقال (أنطون):

-أنا آسف يا حبيبتي ولكنني أرغب أن أذهب لزيارتها وحدي فأنا بحاجة لأن أبقى بعض الوقت مع أحزاني ولا أريد لأحد أن يتأثر بحالة الحزن و الأسى التي تعتمر في داخلي.

نظرت إليه (كاتيوشا) و قد جمدت عيناها و تغيرت تقاسيم وجهها لشدة انزعاجها، ولكنها لم تقل شيئاً سوى:

-كما تريد، إذاً سأنتظر رجوعك في المنزل.

فأجابها أنطون:

-أرغب يا حبيبتي أن تنتظريني في بيت خالتك أو إحدى صديقاتك، فلا أريد أيضاً أن تكوني في هذه الليلة بمفردك في بيت أمي، أرجوك أن تتحمليني في هذه الليلة، فأنا أعلم أن ما أقوله يزعجك ولكن أرجوك أن تتحملي سماجتي .

كان كلام (أنطون) قد أثار انزعاج (كاتيوشا) ولكن

لم يكن أمامها خيار سوى أن تصبر وترضخ لرغبته.
بعد أن وصل العروسان المدينة قررت (كاتيوشا) أن تذهب إلى إحدى صديقاتها، والتي تعرفت إليها في الجامعة، ريثما ينتهي عريسها من زيارة قبر أمه كما روى لها.
وما أن دخلت (كاتيوشا) بيت صديقتها حتى انهالت الدموع من عينيها، وكأن هذه الدموع كانت في سجنٍ و لاذت بالفرار منه.
فقالت لها صديقتها:
-ماذا بكِ يا حبيبتي أخبريني ؟
فقالت لها:
-لا أدري هل أنا مخطئة في اختياري؟ أم أنا متسرعة؟ لا أعلم يا صديقتي، بدأت أشعر بأشياء غريبة في حبيبي و الذي أصبح زوجي، بدأ تعلقه بأمه يتعبني فهو لا يريد أن يقتنع بأنها ماتت وعليه أن يعتاد غيابها .
كانت (كاتيوشا) تقول هذه الكلمات و هي ترسم على شفاهها بسمة بسيطة ترافقت مع دمعة سقطت من عينها.
ثم قالت:
-ولكنني أحبه حتى أنا نفسي لا أعلم مدى حبي له،

فأنا الآن معكِ منذ حوالي عشرين دقيقة فقط، ولكنني خلال هذا الوقت البسيط شعرت أنني اشتقت إليه، فأنا لا أتخيل نفسي أعيش من دونه،ثم أنني يا صديقتي خائفةٌ عليه جداً، فهو بعد شهرين سيذهب إلى الخدمة العسكرية، وأنا قلقةٌ جداً من هذا الموضوع.

فقالت صديقتها مواسية لها:

-لا تخافي يا صديقتي، إن أبي أخبرني أن الجنود من هذه المدينة والذين يلتحقون بالخدمة العسكرية الإلزامية سيتممون الخدمة في المدينة، وليس في مناطق بعيدة أو خطيرة كالقفقاز، فلما الخوف فأنا لا أرى داعي لذلك.

فقالت (كاتيوشا):

-لا أدري على كل حال سأضع أملي في القادم من الأيام.

جلبت صديقتها زجاجة شمبانيا احتفالاً بصديقتها العروس، رفعت (كاتيوشا) مع صديقتها كأسيهما وقالت صديقتها:

-أورا عروستنا الجميلة، أورا ...

بصحتكِ يا أجمل عروس .

شربتا الشمبانيا وسرقهما الحديث، حيث قاربت الساعة الخامسة فانتفضت (كاتيوشا) من مكانها ملهوفة وقالت:

-يا إلاهي، تأخرت على حبيبي (أنطون)، استأذن منكِ يا صديقتي الغالية.

توجهت (كاتيوشا) إلى محطة الميترو مسرعة إلى حبيبها، حتى أنها من لهفتها أخذت تركض على الدرج الكهربائي الموصل إلى المحطة، حين وصلت إلى المكان الذي تقصده استوقفها منظر لم تكن تتوقعه ولم تراه عيناها قط.

لقد كان بيت (أنطون) والذي سيعيش فيه مع حبيبته (كاتيوشا) بيتاً خشبياً قديماً، ورثته أمه عن جدتها، والتي كانت زوجة ضابط في جيش القيصر قبل الثورة البلشفية، أخذت الثورة من أجدادها كل شيء ما عدا هذا البيت، الذي كان في الماضي يعتبر بيتاً زراعياً مخصصاً للعاملين، كان هذا البيت يطل على إحدى البحيرات ومبنياً من الخشب الأحمر الذي يدل على أرستقراطية أصحابه القدماء، فكان هذا بيت (أنطون) الذي ورثه عن أمه حفيدة الأرستقراطيين القدماء .

فوجئت (كاتيوشا)عند وصولها إلى هذا البيت بأضواء

قوية جداً لدرجة أنه خُيِّلَ لها أنها نيران تحرق البيت، فركضت مسرعة باتجاه البيت وهي تصرخ:

-أنطون، أين أنت يا أنطون، هل أصابك مكروه أخبرني؟

وكادت أن تموت من الفزع والرعب لولا أنها فهمت بعد ذلك أن هذه الأضواء هي من وهج الشموع التي ملأت البيت في كل زاوية، وأحاطت بالمنزل من كل الجهات، وكان (أنطون) قد صنع لها طريقاً من أوراق الزهور يمتد من البوابة الخارجية إلى باب المنزل، ليرسم لها مشهداً يعيدها إلى العصور الوسطى، حيث كانت الأميرة تمشي في الليل والشموع من حولها لتجلس على عرش ملكوتها.

كان هذا ما يخطط له (أنطون) ويفكر به طيلة مسافة الطريق ليجعله مفاجئة لحبيبته، والتي كادت أن تشك أن أنطون قد ندم على الزواج منها في تلك اللحظات .

خرج أنطون ليستقبلها، وقام برمي شال ملكي على جسدها، ثم حملها على يديه و أدخلها المنزل، حيث كان قد أعد حفلاً صغيراً لاستقبال عروسته، ثم أخذا يرقصان على أنغام الموسيقا الشاعرية ويشربان الشمبانيا ويحتفلان

بليلتهما السعيدة .

كانت تلك المفاجئة التي صنعها (أنطون) لحبيبته مفاجئة رائعة بالنسبة لـ(كاتيوشا)، بعدما وصلت بها أفكارها بعد تصرفات (أنطون) معها إلى حد أن تشك بحبه لها.

الفصل الرابع عشر:

توجهت (نتالي) بصحبة (سيرغي) باتجاه بيتها و ذلك حتى تبدل ملابسها التي بللها المطر، وما أن فتح الحراس البوابة رأيا ما كانا لا يتوقعانه، حيث كان في حديقة المنزل ـ في القسم المغطى منها ـ حشدٌ كبيرٌ من المسؤولين برفقة زوجاتهم، و اللواتي كن بكامل أناقتهن متزينات بأفخم أنواع الزينة والجواهر، أصيبت (نتالي) بالاستغراب كما أن (سيرغي) تفاجئ بوجود حفلة في منزل (نتالي) و لما لم تخبره بها.

توجه والد (نتالي) إليهما وأخذ يعاتب (نتالي) ويقول لها:

-يا حبيبتي أين كنتِ؟ لقد اتصلت بكِ طوال الوقت ولم تجيبي، ألا تريدين أن تشاركيني فرحتي بمنصبي الجديد؟

فقالت له:

-أبي أعذرني لكن ظننت أنك أخبرتني أن هذا الحفل سيقام يوم غد وليس اليوم .

ضحك الأب وقال:

-كيف يا ابنتي أين عقلكِ فموعد الحفل هو اليوم، على كل حال هذا أمر بسيط يا حبيبتي أخذنا الكلام وكدت انسى أن أرحب بصديقكِ أهلاً وسهلا بك.

انحنا (سيرغي) أمام والد نتالي باحترام وصافحه وقال له:

-أنا (سيرغي) يا سيدي.

-أهلاً وسهلاً بك ضيفاً عزيزاً، تفضلوا حتى نحتفل سوية.

التفتت (نتالي) إلى (سيرغي) وهي مبتسمة وقالت له:

-انتظرني حتى أبدل ملابسي، فأنت اليوم أسير ضيافتنا.

فقال لها:

-سأوافق في حال إصرارك على الدعوة.

-وكيف يكون الإصرار على الدعوة برأيك؟

-أقل شيء من الإصرار سيكون قبلة أمام الحضور، حتى يعلموا أني خطيبكِ لكي لا يتحرش بك أحد، لأنني لن أحتمل هذا التحرش وربما أتشاجر معه، وستكون عندها نهايتي في السجن، لأن كل الموجودين هنا مسؤولون في الدولة، وقد تصل تهمتي بنظر السلطات إلى الخيانة العظمى.

ضحكت (نتالي) بعد كلماته وقالت حسناً:

-قبلة على الخد لا تعني شيئاً، خاصة قبل أن يدور الخمر في رأسك، فأنا أصبحت أعلم وقاحتك ويدك الطويلة.

ابتسم وقال:

-حسناً، أعدك أن أكون ملتزماً جداً بعد القبلة أمام الحضور جميعاً.

كان والد (نتالي) قد أقام الحفل بمناسبة ترفيعه إلى منصبه الجديد، ومن خلال وجود (سيرغي) في هذا الحفل وحضوره المميز بين المسؤولين تيقنت (نتالي) أنه الرجل الذي بحثت عنه طوال هذه السنين، و ذلك لما كان يملكه من صدق وجرأة و لقدرته أن يصنع السعادة من البؤس.

بعد أن استبدلت (نتالي) ثيابها أرادت أن تجلس بجانب (سيرغي) لولا أنه كان يفصل بينهما امرأة في الخمسين من العمر هي مديرة مكتب والد (نتالي).

عموماً ما كانت (نتالي) ترغب في أن تكون بين الحضور لولا أنها نسيت موعد الحفل، لأنها لا تحب أن تعاشر الناس أصحاب النفوذ لعلمها أنهم أنانيون ولا تهمهم سوى مصالحهم الشخصية، ولكن الأمطار التي بللت ثيابها

صنعت الظرف الذي أجبرها أن تكون بين الحضور.

بدأ الاحتفال برفع الكؤوس بصحة والد (نتالي) و التمنيات له بالنجاح في منصبه الجديد، أخذت كؤوس الخمر تتوالى على نغمات الموسيقا الهادئة و أخذ الحضور بالرقص، وما أن تشجع (سيرغي) ليطلب من (نتالي) أن يراقصها حتى سبقه والدها ودعاها للرقص معه.

مما دعى (سيرغي) للتفكير في هذه اللحظة بأنه لو كان أحد غير والدها قد دعاها للرقص ماذا سيفعل، لأن نيران الغيرة أخذت تفعل فعلها معه.

رضخ (سيرغي) للأمر الواقع وجلس قليلاً ثم نظر إلى إحدى النساء المتقدمات بالعمر والتي كانت تجلس إلى جانبه ودعاها إلى الرقص معه، حيث جرت العادة في روسيا بأن يقوم الشاب الراقي بدعوة المرأة الكبيرة في السن، والتي تجلس وحدها، إلى ساحة الرقص حتى لا تشعر بالوحدة، وبينما كانت (نتالي) تراقص والدها و (سيرغي) يراقص هذه المرأة، نظرت إليه (نتالي) نظرة إعجاب مطولة، وأخذا يتبادلان النظرات، كما لو أنه حوار لما بداخلهما من عشقٍ كاد أن ينفجر أمام الحضور،

شعرت (نتالي) أنها تريد أن تنهي الرقص مع والدها حتى ترتمي في أحضان (سيرغي)، إلا أن والدها لم يكن يريد الإفراج عن معصميها ، لولا أن (سيرغي) حينما حان موعد تبادل الراقصين و بعد أن أرجع السيدة التي كانت معه إلى مقعدها تقدم منهما وتجرأ قائلاً:

-أتسمح لي أيها العم أن أرقص مع ابنتك الأميرة.

بدأ (سيرغي) يراقص (نتالي) وبينما كان يراقصها قال لها:

-لم أكن أعلم أنك ابنة وزير .

نظرت إليه (نتالي) وهي تبتسم ابتسامة رقيقة وقالت له:

-أنا كنت ابنة وزير، ولكنني اليوم ابنة نائب رئيس الوزراء.

ثم تابعت نتالي بوحها لـ(سيرغي) عما يجول في خاطرها:

-لعلك تعلم أن تصرفاتك معي قد تأخذ تفكير والدي إلى مدى بعيد.

-وبماذا تصرفاتي ستجعله يفكر.

-قد يظن مثلاً أننا عاشقان.

-ولم لا؟ أنا فعلاً عشقتكِ يا (نتالي)، أنا أحبكِ أحبكِ.

-ماذا تقول؟ إننا لم نعرف بعضنا البعض بشكل جيد بعد ، فالكلام بهذا الموضوع مرفوض تماماً.

فقال لها (سيرغي):

-(نتالي) أنا أحبكِ وأشعر بأنني سأصعد إلى المنصة وأقول لكِ (أحبكِ) على الملأ وأمام الجميع.

غضبت (نتالي) من كلماته الهوجاء وقالت له بصوتٍ خافت:

-إذاً أنا أكرهك، أكرهك جداً.

فقال لها:

-شكراً جزيلاً، فعندما تقول المرأة للرجل هذه الكلمة هذا يعني أنها تحبه.

ابتسمت ابتسامةً ممزوجةً بحيرة وخوف وحجبت نظرها عنه واتكأت برأسها على صدره، فاشتكى قلبها، ولكن دقات قلب (سيرغي) هدأت من خوفها فقالت له:

-أتدري أن دقات قلبك تعزف كالقيثارة؟!

فقال لها:

-نعم هي كذلك، ولكنها تلحن أسمك فقط على أوتارها.

-أظن أن الفودكا قد بدأت تفعل مفعولها معك، على كلاً تعال بنا حتى نجلس فأنا تعبت من الرقص.

عندما جلسا على مقعديهما اعتذر (سيرغي) من (نتالي) قائلاً:

-لحظات يا أميرتي وسأعود إليك، فأنا بحاجة للذهاب إلى دورة المياه لأغسل وجهي.

هرول سريعاً باتجاه دورة المياه، (غريغوري) و الذي كان حاضراً كذلك انتبه إلى أن سائقه يجري خلفه، فذهب خلفهما، فسمع من خلف الباب سائق (سيرغي) يقول له:

-سيدي هيا بنا نذهب إلى البيت فهذا سيكون أفضل لك.

استرق (غريغوري) النظر من شق الباب فرأى السائق يعطيه حقنة في يده لعلها قد تكون مادة مهدئة ما، وبعد ذلك بدقائق قليلة عاد (سيرغي) إلى حالته الطبيعية.

وذهب إلى ساحة الحفل وأخذت عيناه تبحث عن (نتالي) مما دعاه أن يجلس بجانب المرأة المسنة و التي كان يراقصها فسألها:

-ألا تعرفين أين ذهبت (نتالي)؟

فأجابته:

-إنها قد ذهبت لتستبدل ملابسها.

ودار حديث بينه وبين هذه المرأة، حتى سمع صوت (نتالي) من خلفه تقول:

-هل أصابتك الغربة من دوني؟

التفت إليها وقال:

-رغم أنني لم أكن وحدي ولكنني أحسست بالغربة.

نظرت نتالي إلى (سيرغي) وقالت:

-ما رأيك بثيابي هل تعجبك ؟

نظر (سيرغي) إلى أعلى و أشار إلى النجوم في السماء وقال لها:

-لا تسأليني أنا، اسألي هذه النجوم لماذا تبكي؟

فقالت نتالي:

-وهل النجوم تبكي ؟

-نعم تبكي، تبكي غيرة من جمالكِ و أناقتكِ يا أميرتي.

نظرت إليه (نتالي) وقالت:

-أتدري يا (سيرغي)، بدأت أخاف منك، فأنتم يا

أصحاب الكلام المعسول تسرون المرأة في كلامكم وتبكونها في أفعالكم.

-بما أنكِ تخافين هذا يعني أنكِ تعشقين، فأنا أيضاً يا (نتالي) بدأت أكتشف بكِ أشياءً لم أكن أعرفها .

-وما الذي اكتشفته؟

-رأيت بكِ ما سيخرجني من الهموم التي أثقلت قلبي.

-أشعر وكأن خلفك غموضاً دامساً.

-أن غموضي بحاجة إلى نوركِ يسطع عليه فيكشف مكنوناته الأزلية، ويفصل بين سواده وبياضه، فيكشف مدى الحب الذي وضعتيه في قلبي مذ رأيتكِ.

كثيرون كانوا ينظرون إلى (نتالي) و (سيرغي) وهما متعانقان، كان الجميع يتسائلون عن طبيعة علاقة (سيرغي) ونتالي، هل هم صديقان؟ أم عاشقان؟ أم أنهما قد اتفقا على الزواج؟ وكان من أكثر الحضور اهتماماً بنتالي، صديق والدها وزوجته، و هما والدا (أندريه).

كانا يعرفان أن ولدهما (أندريه) يحب (نتالي) ويحاول أن يتقرب منها ولكن دون جدوى، كما أن والدة (أندريه) كانت تتمنى أن تكون (نتالي) من نصيب ولدها ، ولكنها

لم تكن تربط علاقتها بـ(نتالي) بحب ولدها لها، لأنها و زوجها كانا على درجة عالية من الوعي، ولا يربطان علاقاتهم بالناس بمصالحهم الشخصية، لم يكن يهمهما من سيكون صاحب النصيب في الثروة الكبيرة التي سترثها (نتالي) عن أبيها، فكثيرون كانوا يطمعون بـ(نتالي) بسبب ثروة ومنصب والدها، ولكن والد (أندريه) وأمه كانا مختلفين تماماً عن هذه الفئة من الناس، وخصوصاً أن والد (أندريه) هو الصديق الأقرب لوالد (نتالي)، فقد كانا صديقين منذ أيام الدراسة.

لاحظ والد (نتالي)، و الذي كانوا يقولون أن كل شيء في ابنته يشبهه، حيث كان طويل القامة، وعيناه زرقاوان واسعتان، و شعره غزير أشقر، كما كان عريض المنكبين مفتول العضلات، لاحظ علاقة ابنته بـ (سيرغي) وأن كل تصرفاتهما لم تكن عادية، وخصوصاً أنه لم يعتد أن يرى ابنته في هذه الحالة من الاهتمام برجل ما، كما وأنها استبدلت ملابسها أكثر من مرة خلال الحفل، لاحظ كذلك نظراتها إلى (سيرغي) وهو يراقص غيرها، وكيف ارتمت بأحضانه حال ما دعاها إلى الرقص.

فما كان من والد (نتالي) إلا أن ذهب إلى صديقه والد (أندريه) وأسرَّ له ما يشعر به، وسأله ما رأيه في الموضوع.

كان والد (أندريه) أيضاً قد لاحظ هذا الأمر وكان هذا مما دعاه في تلك اللحظة أن يقف وسط الحضور، والكأس بين يديه وأخذ يقول بلسان مثقل بعض الشيء:

-يا أيها الحضور في هذا الحفل الكريم، الذي هو بمناسبة احتفالنا بترقية أخي وصديقي وحبيبي إلى منصبه الجديد، لا يسعني في هذا اليوم الجميل إلا أن أتمنى أن تصبح الفرحة فرحتين، وأن أدعوكم لنشرب نخب صديقي وابنته (نتالي)، والتي هي بمثابة ابنتي والتي لا أظن أن محبة والدها لها أكثر من محبتي لها، و أهنئها بمناسبة لقائها مع الشخص الذي من المؤكد أنها اختارته بعناية، وإنه شابٌ كفؤ لأن يكون صهرنا وزوج ابنتنا التي نحبها جميعاً، إنه حقاً شابٌ مميز وآمل أن يسعد ابنتنا.

نظر إليه (سيرغي) واقترب منه و همس في أذنه:

-عماه شكراً على إطرائك الظريف ولكن الأمر ليس كما فهمته..

ضحك والد (أندريه) و وجه كلامه إلى والد (نتالي) قائلاً:

-نحن جميعنا نفهم ونعلم، أليس كذلك يا صديقي..

فأخذا و هما يضحكان يناديان بالمذياع:

-غوركا غوركا..

و أخذ الجميع يردد خلفهما غوركا غوركا...

أُحرجت (نتالي) كثيراً من هذا الذي جرى و كذلك (سيرغي) كان محرجاً أيضاً، مما دعا (نتالي) أن تقف وتقول أمام الحضور:

-يا أيها الحضور الكريم نحن في روسيا لدينا عادات وتقاليد راسخة، وهذه العبارة (غوركا غوركا) تقال في الزفاف ونحن حتى الآن لسنا متزوجين...

صفق لها الجميع وكأنهم لم يسمعوا ما كانت تقوله ورفعوا الكؤوس واخذوا يصرخون:

-بصحة (نتالي) وخطيبها، بصحة (نتالي) وخطيبها..

أخذت (نتالي) بيدها (سيرغي) من بين الحضور المخمورين ومشت باتجاه شلال من الماء في ساحة القصر، حيث يقال أن هذا الشلال صمم خصيصاً لذكرى والدتها، والذي كان شكله عبارة عن تمثال كبير لامرأة جميلة تبكي شلالاً، وخبأت خلفها رجلاً يبكي جدولاً صغيراً...

كان يقف وحيداً أمام هذا الشلال رجل دين حيث كان من بين المدعوين، تقدم (سيرغي) إليه وقبله على يده وقال له:

- يا أبانا هل تبارك لنا أنا وحبيبتي زواجنا...

فقال له الخوري مستغرباً:

-يا ولدي أهنا تريدني أن أبارك لكما زواجكما..

-ولم لا يا أبانا فما الفرق بين هذا المكان والكنيسة، فهذا المكان الجميل في أحضان الطبيعة هو كذلك من خلق الرب ومليكتي هذه أجمل ما خلق الرب فبارك لنا أرجوك يا أبانا..

أُحرجت (نتالي) وابتعدت بعض الشيء وكأنها لا تفهم ما يحدث، ولكن (سيرغي) استطاع بعد جدال أن يقنع الخوري وتقدم إلى (نتالي) وقال:

-لنركع أنا وأنتِ أمام هذا الرجل الذي يمثل كلمة اللّٰه على الأرض لكي يعلننا زوجاً وزوجة و يبارك لنا حبنا في السماء و الأرض.

جثت (نتالي) أمام الخوري و (سيرغي) بجانبها وقال لها الخوري:

-أتعلمين يا بنيتي أنني أيضاً باركت زواج والدكِ و والدتكِ منذ زمان طويل، و ها أنا الأن سأبارك زواجكِ.
وأخذ قليلاً من الماء من الشلال وبارك باسم الرب وقال:
-يا أولادي لقد باركت زواجكما باسم الأب والابن والروح القدس.
فقال (سيرغي):
-يا أبانا هل أصبحنا زوجاً وزوجة؟
ضحك الخوري وقال:
-اسأل عروسك.
ومشى بعد أن اعتذر منهما لأنه قد حان الوقت ليذهب إلى الكنيسة.
ظلت (نتالي) و(سيرغي) بجانب هذا الشلال متعانقين جزءاً كبيراً من الليل، يجلسان على الصخرة التي كتب عليها (هنا جلست حبيبتي).
لم تكتمل مدة 24ساعة على لقاء امرأة ورجل لتدور الأحداث التي حكم القدر فيها على عاشقين يبهران أنظار كل من نظر إليهما، و ها هما يقفان أخيراً أمام شلال القصر الجميل يشربان على صخرته النبيذ الأحمر و

يدخلان إلى عالم الحب و الزوجية.

حمل (سيرغي) عروسه على يديه و اتجه بها إلى مخدعهما بعد أن لم يعد يسعه الانتظار ليعبر عن حبه، و بعد أن أصبحت الكلمات لا تكفي للتعبير بما يجيش في نفسه.

عندما استيقظ العاشقان (نتالي) و(سيرغي) في اليوم التالي في أول صباح بعد أن دخلا الحياة الزوجية، كانا يشعران أن سعادتهما لا حدود لها، و كانا يشكران ذلك القدر الجميل الذي حكم على علاقتهما، وكأن الاحتفال الذي كان والد (نتالي) يحضر له من أجل ترفيعه في منصبه كان في نفس الوقت عرساً لابنته.

بعد قليل أتى إليهم خادم القصر ودعاهما إلى وليمة الفطور التي أعدها والد نتالي على شرف العروسين.

ذهبا إلى الحديقة حيث مدت وليمة فطور غنية بكل ما لذ وطاب من مأكولات ومشروبات، وكان يجلس على رأس الطاولة والد (نتالي) والذي استقبلهما بكلمات الترحيب والمباركة حيث أخذ يقبل (نتالي) ويبارك لها عريسها وأيضاً بالمثل بارك صهره (سيرغي) وقال له:

-أن ابنتي (نتالي) لم يكن يعجبها أحدٌ من الرجال مع

أنها كانت محاطة بالكثير من المعجبين، ألا أنها أبت أن تربطها علاقة مع أي رجل، لدرجة أنني قلت في نفسي أن ابنتي من المستحيل أن تتزوج، وكان هذا ما يشغلني كثيراً، وكان خوفي يزداد عليها خصوصاً عندما كنت أفكر بما سيحل بها بعد وفاتي، و من سيبقى إلى جانبها، وبما أن (نتالي) قد وقع اختيارها عليك، فلا شك أنك رجلٌ صاحب أخلاق، و ذو خبرة حياتية جيدة، ولكن كل ما أريد قوله لك يا أيها الصهر العزيز هو حذاري وأن تؤذيها، فهي كل ما أملك في هذه الحياة، وهي بالنسبة لي ليست ابنتي فحسب وإنما هي روحي وكل ما أملك في هذه الدنيا، فأرجو منك أن تكون بحجم المسؤولية والأمانة.

حين انتهى والدها من كلامه ودَّعهما معتذراً أن عليه الذهاب بسبب مسؤولياته الجديدة، أما العروسان فقد أمضيا يومهما كله وهما يستمتعان بهذه الحياة الجديدة التي فتح الحب لهما أبوابها.

الفصل الخامس عشر:

من المعروف عن الشعب الروسي أنه من أكثر شعوب العالم اهتماماً بالثقافة و الأدب، ويوجد في ذاكرة الأدب الروسي الكثير من أسماء الكتاب والأدباء الذين أغنوا الأدب العالمي و أصبحت اسمائهم معالم بارزة يعرفها القاصي و الداني.

ونخصُّ بالذكر (ليف تولستوي) و الذي أبدع الملحمة الخالدة (الحرب و السلم)، و التي تدور أحداثها إبَّان غزو نابليون لروسيا، كما و كتب العديد من الأعمال الأدبية المهمة الأخرى كـ (آنا كاريننا) و(مذلون مهانون) وهي قصة تحدثت عن مجتمع المال الذي لا يرضخ لأي قيود اجتماعية ولا يهتم للعواقب الأخلاقية.

كما و لا يمكن نسيان الكاتب الروسي العظيم (ميخائيل بولغاكوف) والذي أبدع رواية (المعلم و مارغاريتا) و (قلب كلب) و رواية (الحرس الأبيض) و فيها رصد التحولات الاجتماعية المهمة التي أدت بمجملها إلى انهيار الحكم القيصري في روسيا.

و لعل قمة الإبداع الأدبي و التحليل النفسي العميق لشخصيات روايته توصل إليها الكاتب العظيم دوستويفسكي في أعماله الخالدة كـ (الجريمة و العقاب) و (الأبله) و (المقامر) و (الأخوة كارامازوف)، هذا الكاتب العملاق الذي درس خبايا و أعماق النفس الإنسانية، و كشف زيف المجتمع الذي عاصره في ادعائه للفضيلة و هو غارقٌ في الرذيلة و النزعة المادية البعيدة عن إنسانية الإنسان.

ولا ننسى الكاتب العظيم (أنطون تشيخوف) و الذي أشتهر بقصصه التي أغنت الأدب العالمي و من قصصه الشهيرة (السيدة صاحبة الكلب) وروايته (العروس والرجل المجهول) كما و أشتهر بمسرحياته.

أما (نيقولاي غوغول) فقد أشتهرت له قصتا (المعطف) و (الأنف) و اللتان اعتبرتا انطلاقة حقيقية لأدب القصة القصيرة في روسيا، كما أشتهر (غوغول) برواياته التي تناولت الظواهر الغريبة كظاهرة السحر والحياة بعد الموت، و ذلك في روايتيه (الأنفس الميتة) و (أمسيات قرب قرية ديكانكا) .

و من الملفت للنظر أن جميع هذه الأسماء و عشرات غيرهم من الأدباء اللامعين يعودون إلى عصر التنوير الروسي و الذي استمر إلى مطلع القرن العشرين، و قد كان هؤلاء الأدباء العظماء يسعون إلى تغير واقع روسيا و نقلها نقلة نوعية إلى الأمام، من خلال نشر المعرفة و الثقافة و دون اللجوء إلى العنف، إلا أن ظروف الحرب العالمية الأولى ساهمت في تأزم الأوضاع داخل روسيا ، و عسكرة المجتمع و بروز قوة متطرفة من أقصى اليمين و اليسار ، مما أدى في النهاية إلى الثورة الاشتراكية و خلع القيصر و إعدامه مع عائلته، لتنشب الحرب الأهلية الروسية التي استمرت عدة سنوات كانت صعبةً جداً على الشعب الروسي.

و مع هذه الظروف الصعبة استمرت التقاليد الأدبية الروسية و ظهر زمن الاتحاد السوفييتي كتاب عظماء مثل (شولوخوف) و الذي كتب رواية (الدون الهادئ) و فيها تحدث عن مجتمع (القوزاق) في روسيا و الذين يعيشون على ضفاف نهر الدون، و تدور أحداث الرواية أبان الحرب العالمية الأولى و الحرب الأهلية الروسية و التي انقسمت فيها العائلات و حمل الأخوة السلاح في وجه بعضهم

البعض، كما و أشتهر الكاتب (سيمونوف) و الذي أبدع ثلاثية (الأحياء و الأموات)، و تدور أحداثها أبان الحرب العالمية الثانية و هذه الحرب تدعى في روسيا بالحرب الوطنية العظمى أو الثانية، تميزاً للحرب الوطنية الأولى، و هي التي خاضها الشعب الروسي ضد غزو قوات نابليون، الذي سيطر على أوروبا، ثم هجم بجيش جرار من فرنسا و عدد آخر من البلدان الأوروبية على روسيا.

كان لا بد من هذه المقدمة البسيطة عن الأدب الروسي لنوضح للقارئ الكريم مدى اعتزاز الشعب الروسي بأدبه و أدبائه، حيث كانت (كاتيوشا) مولعة بالأدب و كانت تكتب رسائل بديعة لـ(أنطون) و هو في الخدمة العسكرية.

كانت هذه العادة لا تفارقها حتى في العمل في نادي (الدي آند نايت) حيث كان عملها في (الكاردروب) غير مجهداً، حيث يقتصر على استلام معاطف الزبائن الداخلين إلى صالة النادي و تسليمها لهم عند خروجهم، مما كان يتيح لها وقتاً وفيراً لتكتب خلجات نفسها بلغة بديعة، و تصيغ منها رسائل ترسلها أسبوعياً إلى زوجها (أنطون) و هو

يقضي الخدمة العسكرية.
و كثيراً ما كانت دموعها تنزل خلسة من عينيها وهي في العمل خاصة عندما كانت وحدها و لا أحد يراقبها.
في أحد الأيام لم تنتبه (كاتيوشا) أن هناك أحد الرجال قد دخل و لفت انتباهه دموعها ، فاقترب منها وعرض عليها منديلاً كي تمسح دموعها ، كان هذا الرجل (قنسطنطين ايفانوفتش) صاحب أحد أكبر معامل الشوكولا ، حتى بات يطلق عليه لقب أمير الشوكولا ، و رغم أنه قد بلغ من العمر 55 عاماً لكن وجهه يظهر لمن يشاهده بأنه لم يتجاوز45عاماً من العمر، أصبح هذا الرجل من عشاق السهر في النوادي الليلية بعد رحيل زوجته منذ خمسة سنوات إثر تعرضها لحادث أليم أودى بحياتها، أصبح (قنسطنطين) يعاني الوحدة بعد موت زوجته التي لم تنجب له أولاداً طيلة مدة زواجهما.
كان (قنسطنطين) ثرياً جداً، ولكنه لا يملك أقرباء، وأصبح بعد رحيل زوجته يخاف أن يقضي عمره وحده وأن تذهب أمواله إلى خزينة الدولة بعد وفاته، وكان هذا كل ما يشغل تفكيره، لأن قطار العمر بدأ يمر عليه سريعاً

فقد ودع سن الشباب وأصبح يعد سنوات العقد السادس من العمر.

سحب (قنسطنطين) من جيبه منديلاً وعرضه على (كاتيوشا) لتمسح دموعها وسألها:

- ما الذي يبكي هذا الملاك؟

تمالكت (كاتيوشا) نفسها و قالت له بعد أن مسحت دموعها:

- أنا آسفة يا سيدي فمنذ مدة وجيزة ذهب زوجي إلى الخدمة العسكرية وأنا لم أعتد على غيابه بعد.

فقال لها مواسياً:

- يا أيتها الحسناء إن الخدمة العسكرية واجبٌ على كل رجل في هذا البلد، و لكن أيامها تمضي بسرعة و ما يلبث أن يعود زوجك إليكِ.

- أنا أعلم هذا جيداً ولكن قلبي يرفض أن يتحمل فراقه.

-قولي لقلبك أن فترات البعد وجدت لتختبر حب وصبر القلوب والإخلاص بين المحبين.

- شكراً لك على كلامك الطيب، أظن أن حبيبتك قد

انتظرتك أيضاً عندما كنت في الخدمة العسكرية؟

-نعم لقد كان لي حبيبة منذ أيام الدراسة و لكني عندما ذهبت للخدمة العسكرية في أفغانستان عدت ووجدتها لم تحتمل صبراً فتزوجت من رجل آخر.

-كيف هذا؟ ألم تكن تحبك؟

-أظن أنها كانت تحبني ولكنها لم تكن متأكدة من عودتي لأن أخباري انقطعت عنها لأكثر من نصف سنة.

-ولماذا انقطعت أخبارك، لما لم تكتب لها؟

-كنت في المستشفى فاقداً للوعي في تلك الأثناء، فقد أصبت بشظية في رأسي، أثناء أحد العمليات القتالية.

أما أنتِ أيتها الحسناء فأنني أرى بكِ كل الوفاء لزوجكِ فعسى يرده الرب لكِ سالماً معافى.

الفصل السادس عشر:

كان يصادف عيد ميلاد (قنسطنطين) بعد عدة أيام من ذلك اليوم الذي التقى فيه (كاتيوشا) و تحدث معها، و قد قرر أن يحتفل بعيد ميلاده في نادي (الداي آند نايت)، و قد كان المدعوون إلى الحفل لا يقلون عن مئة شخص من ضباط ومثقفين وأصحاب نفوذ في الدولة، حيث أن (قنسطنطين) كان ضابطاً متقاعداً وبعد تقاعده المبكر اتجه إلى النشاط التجاري وأضحى اليوم رجل أعمال ثري جداً، كان (قنسطنطين) موفقاً جداً في عمله التجاري، على العكس من ذلك كان في حياته الأسرية، فقد تزوج في سن متأخرة وكان عمره في تلك الأثناء قد تجاوز الخامسة و الأربعين عاماً، ولكن زوجته لم تستطع الإنجاب طيلة فترة زواجهما، فقد قبعت في السجن مدة عشر سنوات قبل أن يتزوجا بسبب تهمة اختلاس وجهت إليها، حيث كانت تعمل في شركة (قنسطنطين) كمحاسبة، كان الحكم الذي صدر في حقها من القضاء حكماً ظالماً، فقد وقف خلفه أشخاصٌ لهم

مصلحةٌ في إزاحتها، حيث كانت تقطع عليهم سبل السرقة من الشركة، فنصبوا لها فخاً وسرقوا محتويات خزنة الشركة، وكانت هي المتهم الرئيسي في ذلك كونها الوحيدة التي تملك مفاتيح خزنة الشركة.

وللأسف فأن (قنسطنطين) كشف هذه المؤامرة متأخراً، فقطع عهداً على نفسه أن ينتظرها حتى تخرج من السجن ليتزوجها، ويعوض لها سنواتها العشر التي ذهبت رخيصة في السجن، وما كان من (قنسطنطين) فعلاً إلا أن عقد قرانه بها بمجرد خروجها من السجن، و أقام عرساً كبيراً شهدت له كل المدينة، كما أن الجرائد والمجلات كتبت الكثير عن هذا الحدث، وعن حفلة زفاف رجل الأعمال من امرأة قبعت في السجون الروسية عشر سنوات كاملة، حيث أن السجون الروسية كان من المعروف عنها في تلك الأيام أنها قاسيةٌ جداً، وكان يحصل بها الكثير من الإضرابات بسبب سوء معاملة السجناء.

وكانت زوجته هي من قادت إحدى أضخم الإضرابات مما أدى إلى فتح تحقيق فيدرالي، أشرف عليه مسؤولون من

الكرملين[5]، مما أدى إلى موجة من التصفيات كما و حوكم الكثيرون على خلفية هذه الأحداث و أرسلوا إلى السجون.
وكان هذا الإضراب قد أعطاها شهرة واسعة، كما و أنها بعد أن خرجت من السجن عملت في مجال الحفاظ على الحريات العامة و حقوق الإنسان، فدخلت الانتخابات البرلمانية بعدها بخمسة سنوات تقريباً و رغم نجاحها في الانتخابات إلا أنها لم تستلم مقعدها في البرلمان أبداً فقد تعرضت لحادث سير أليم دارت الشكوك حول كونه مدبراً.
و هكذا فإن زوجة (قنسطنطين) كان حظها من السعادة في الحياة قليلاً، فقد أمضت عشر سنوات في السجن ظلماً، ومن ثم علمت أنها لا تستطيع الإنجاب وكانت الضربة القاضية عندما قتلت في حادث مدبر.
قطع (قنسطنطين) عهداً على نفسه أن لا يتزوج بعدها وأن يبقى وفياً لها.
وهذا هو عيد ميلاده الخامس والخمسين يحتفل به وحيداً

[5] الكرملين هو مقر الحكومة الروسية (الناشر).

إلى جانب عشرات المدعوين والذين كان بينهم (نتالي وسيرغي) فقد كانت تربطهما به علاقة جيدة، حيث كان (سيرغي) رفيق سهراته في نادي (الدي أند نايت) وكانت (نتالي) تربطه بها علاقة عمل، حيث كان يملك شركة للتخليص الجمركي وكانت (نتالي) كثيراً ما تلجئ إلى شركته لإتمام إجراءات استيراد البضائع من الخارج.

بدأ (قنسطنطين) كلمته في الحفلة شاكراً الحضور ثم رفع نخب جميع السيدات الموجودات في هذه السهرة معلناً بداية الحفل.

كان الطقس في تلك الليلة صيفياً جميلاً، إذ ظهرت السماء على غير عادتها مليئة بالنجوم المتلألئة حول القمر الذي بدا رائعاً، وكانت عيون (كاتيوشا) الحزينة تنظر إلى هذه السماء و تسلي وحدتها بعد هذه النجوم، و لم يكن إلى جانبها يسليها سوى (غريغوري) حيث دخل جميع المدعوين إلى صالة الاحتفال.

قال (غريغوري) ممازحاً لـ(كاتيوشا) عله يخرجها من حالة الحزن التي ألمت بها:

-أراكِ تحزنين فتحزن النجوم معكِ، فحذاري أن تحزن السماء فتبكي علينا مطراً وتعكر علينا صفو الصيف الرائع.

ابتسمت (كاتيوشا) ابتسامة ممزوجة بالحزن و قالت:

- أهلا بك يا عم (غريغوري) كيف حالك، في الحقيقة أنا قلقة على (أنطون)، قلبي يقول لي أنه قد ذهب إلى غير رجعة.

ابتسم (غريغوري) ابتسامةً ماكرةً و قال لها:

-بهذا الخصوص لا تقلقي يا ابنتي، ولا تدعي هذه الأوهام تسيطر عليكِ، كما أنني أحمل لكِ أخباراً سارة فكوني مطمئنة على (أنطون)، لأني علمت أن السيد (قنسطنطين) قد كلم أحد المسؤولين لأجل أمره، وأنه وعده أن (أنطون) سيقضي مدة خدمته في المدينة، فليس هناك داعي للقلق نهائياً يا صغيرتي.

-حقا أن هذا السيد (قنسطنطين) رائع، فما أن علم سبب حزني - من جراء حديث واحد جرى بيني و بينه - حتى أخذ يقوم باتصالاته مع المسؤولين لأجل (أنطون)، بودي لو استطيع أن أشكره و أُعبِّر عن امتناني له.

-ألا تعلمين أن الاحتفال في هذه الليلة هو بمناسبة عيد ميلاده الخامس والخمسين.

- حقاً ما تقول يا عم (غريغوري)، لم أكن أعرف سبب الاحتفال اليوم، كما أنني يبدو قد انشغلت بمساعدة العاملين في التحضيرات للحفل فلم ألحظ قدوم السيد (قنسطنطين)، و مع هذا فهذه فرصة حتى أقدم له الشكر والتهنئة.

في هذه اللحظة خرجت (نتالي) و بصحبتها (سيرغي) ووقفا عند شرفة النادي ثم القت (نتالي) بالتحية عليهما و سألت (غريغوري):

-كيف حالك يا (غريغوري) هل كل شيء على ما يرام؟

-الحمد لله يا سيدتي كل شيء بخير، كما أنني أحب أن أقدم لكِ هذه العروس الجميلة، ابنة أخت (دانيلئيدا ايفانوفنا) حيث أنها كثيراً ما تأتي لتساعد خالتها او تنوب عنها كما اليوم حيث أن (دانيلئيدا ايفانوفنا) قد ألمت بها وعكة صحية .

اقتربت (نتالي) من (كاتيوشا) وقالت لها:

-أهلا بكِ يا جميلة، أعرفكِ بنفسي أنا (نتالي) صاحبة

هذا النادي وهذا زوجي (سيرغي).

كان (سيرغي) في تلك اللحظة مثقل الرأس من الخمر فلم يعلم بماذا يتكلم، حيث قال بعض عبارات الغزل لـ(كاتيوشا) و أردف كم هو محظوظ من يملك قلبها.

أجابت (كاتيوشا) والدمعة على خدها:

-نعم أنا متزوجة وزوجي الوحيد من يملك قلبي، و هو حالياً في الخدمة العسكرية.

نظرت إليها (نتالي) ووضعت يدها على خد (كاتيوشا) ومسحت لها دمعتها ثم قالت لها:

-لا نريد منكِ عملاً في هذه الليلة نريدكِ أن تجلسي معنا.

خجلت (كاتيوشا) واحمر وجهها وقالت:

-شكراً لكِ يا سيدتي، لا أريد أن أعكر صفو احتفالكم بوجهي الكئيب، سأذهب للقيام بواجبات العمل نيابة عن خالتي .

بينما كان هذا الحديث يدور بين (نتالي) و(كاتيوشا) خرج (قنسطنطين) يتفقد غياب (نتالي) و (سيرغي) عن القاعة، فوجدهما أمام مدخل النادي فأخذ يقول لهما:

-أين أنتما، لقد أطلتما الغياب حتى ظننت أنني

أغضبتكما في شيء .
فردت عليه (نتالي):
-لا يا صديقنا الغالي (قنسطنطين) فهل يوجد أحد في الدنيا تغضبه طيبتك وشخصك الكريم.
وقبل أن يرد (قنسطنطين) على كلمات (نتالي) الرائعة فيه سمع (كاتيوشا) تقول له :
-كل عام وأنت بألف خير (قنسطنطين أيفانوفتش).
فرد عليها:
- آه (كاتيوشا) الجميلة الرائعة هنا وأنا لا أعلم .
خجلت كاتيوشا من كلماته واعتذرت لتذهب وتكمل عملها لكن (قنسطنطين) أوقفها ثانية وقال:
-حقاً إن هذه الجميلة تريد أن تفسد علي سهرتي هذه الليلة.
نظرت كاتيوشا بتعجب وقالت:
-لا سمح اللّه يا (قنسطنطين ايفانوفتش) فأنا أحترمك جداً خصوصاً بعد ما بلغني أنك ساعدت زوجي في أمر خدمته العسكرية.
فأكمل (قنسطنطين) كلامه يقول:

-يا أصدقائي لو أن القدر لم يعاكسني و تزوجت أميرة قلبي الأولى لأنجبت فتاة كانت بعمر (كاتيوشا) وجمالها.
فقالت (نتالي) وهي تضحك:
-نفهم من كلامك أنك دخلت سن الشيخوخة يا (قنسطنطين)؟
رد وكأنه لم يسمع كلام (نتالي):
-كانت محبوبتي وكأنها (كاتيوشا) في الجمال، كان لها مثل عيون (كاتيوشا) وشكلها وحتى دمعتها وبسمتها.
ثم أكمل بصوت مُزج فيه بعض الحزن:
-لو لم يعاكسني القدر لكنت الآن والد لفتاة مثل (كاتيوشا).
قاطعه (سيرغي):
-يا صديقي فقد رحل من رحل، ويجب علينا أن نؤمن بقضاء الله وقدره، ولكنه آن الأوان أن تبحث لك عن حبيبة و زوجة تنجب لك ولداً يحمل أسمك، فها أنا أحمد الرب لأنه رزقني بحبيبتي (نتالي) التي أكمل الله بها سعادتي.
أجاب (قنسطنطين):

-إن التي كانت ستحمل ولدي هي الآن في مرقدها الأخير وهذا قدري وأنا راضي به.

تدخلت (نتالي) في الحديث والذي بدأ يتجه نحو شيء من التراجيديا والحزن وقالت:

-تعالوا ندخل القاعة ونرفع كأس ذكرى زوجة (قنسطنطين) في سهرة عيد ميلاده.

توجه الجميع باتجاه القاعة عدا (كاتيوشا) التي ظلت مكانها وكأنها غير معنية بالدعوة، لولا أن (قنسطنطين) نظر إلى الخلف وقال لها:

-(كاتيا) تعالي معنا، ما بكِ وكأن الدعوة لا تعنيكِ؟

فقالت له:

-شكراً، فأنا لدي عمل كثير أساعد به القائمين على الاحتفال.

فقال لها:

-أرجوكِ تعالي معنا وألا أقسم أنني سألغي الاحتفال.

تقدمت (نتالي) و(سيرغي) وأمسكا بيديها وساروا بها إلى الداخل.

همست (نتالي) بأذن (كاتيوشا):

-إنني أشعر وكأننا سنصبح صديقتين فهل تقبلين صداقتي يا (كاتيوشا)؟

فقالت (كاتيوشا):

-هذا شرف عظيم لي يا سيدتي (نتالي).

ردت (نتالي) قائلةً:

-من اليوم ناديني باسمي فقط، وهيا بنا نحتفل بمناسبة صداقتنا الجديدة.

إن قاعة الضيوف في نادي (الدي آند نايت) بمساحتها الواسعة يزيِّنُ سقفها دائرة كبيرة مطلية باللون الذهبي، وفي وسطها عُلقت ثريا عملاقة عليها ما يقارب الخمسين مصباح إنارة.

وما كان غير ملاحظ في هذه القاعة بسبب تركيز الإنارة على وسطها هو وجود لوحة زيتية بريشة الفنان المبدع (ماكوفسكي) عُلقت على إحدى الجدران الجانبية، حيث رسم فيها الفنان إحدى الوجوه النسائية الجميلة، وكان أول من لاحظ هذه اللوحة هو (قنسطنطين) فأنتبه أن وجه الفتاة المرسومة في هذه اللوحة ـ والتي رسمت قبل مائة وخمسين عام ـ تشبه إلى حد لا يوصف وجه

(كاتيوشا) الجميل، حيث دعى (قنسطنطين) (كاتيوشا) لتقف بجانب اللوحة ودعى الحضور لينتبهوا له و قال:

- انظروا يا أيها السادة الكرام وكأن (ماكوفسكي) المبدع حين رسم هذه اللوحة علم أن هذا الوجه سيولد بعد قرن ونصف فرسمها قبل أن تولد انظروا واستمتعوا بهذا الاكتشاف الرائع.

نظر جميع الحضور حيث أصابتهم الدهشة، فكانت اللوحة بالفعل وكأن (كاتيوشا) كانت تجلس أمام هذا الفنان، فأخذ كل الحضور يصفقون و شرعوا يتصورون بجانب (كاتيوشا) و اللوحة وكان الكثير من الحاضرين يود أن يتعرف على(كاتيوشا) الجميلة.

فتدخلت (نتالي) حينها وقالت:

-فليعلم الجميع أن هذه الجميلة لها زوجٌ تحبه ويحبها كثيراً، وهو الآن يقوم بواجبه الوطني في خدمة العلم، فتعالوا نقرع الكؤوس في صحة زوج (كاتيوشا) وجيشنا العظيم.

جلس (قنسطنطين) وبجانبه (سيرغي) ثم (نتالي) و(كاتيوشا) والتي كانت محرجة وصامتة، ترفع كأسها

فقط ليراها الجميع أنها تشارك، لكنها في الحقيقة لم تكن تشرب ولا حتى نقطة واحدة، كانت تفعل هذا فقط من أجل (نتالي) الطيبة ولتشارك (قنسطنطين) و (سيرغي) فرحتهما في هذه المناسبة.

بعد قليل همست (نتالي) في أذن (كاتيوشا) ثم خرجتا باتجاه الحمام.

أما (سيرغي) فقد لاحظ أن (قنسطنطين) أخذ ينظر إلى كاتيوشا الجميلة بعد أن أدارت ظهرها و أطال النظر ساهماً في قوامها الجميل المتناسق.

فأراد أن يلهيه عما هو فيه فقال له ممازحاً:

-أراك تذوب في مشيتها وجمالها يا (قنسطنطين)

فأجابه (قنسطنطين):

-لا يا صديقي فمالي وما لها، فهي بعمر أولادي لو كتب اللّه أن يكون لي أولاد.

فقال (سيرغي) مشاغباً:

-لا يعيب الرجال شيء يا صديقي، وأنت بحاجة إلى حبيبة، وأرى أنك مهتمٌ بها ولا أظنك تستطيع إنكار ذلك.

-أخجل يا (سيرغي) أن اعترف بإعجابي بها، فهي

متزوجة و تحب زوجها حباً لم أرى مثله على الإطلاق، ألم تلاحظ يا (سيرغي) كم هي رائعة وكم يوجد من البراءة في وجهها الملائكي، ولكنني أرى في داخلها غربة الروح.

-وماذا تقصد بالغربة يا صديقي؟

-يا صديقي الغربة كلمة طعمها مر بمرارة العلقم، فأنا أرى في عينيها قصة تزينها الأشواك.

-قل لي يا (قنسطنطين) ومن دون فلسفتك التي لا أفهمها جيداً، هل أحببتها؟

فقال (قنسطنطين) بتحسر:

-ومن يرى هذا الوجه ولا يحبه ويشتهيه، فإن كل ثروتي قليلة مقابل أن أحصل على حب فتاة مثل (كاتيوشا).

في تلك الأثناء كانتا (نتالي) و (كاتيوشا) قد خرجتا إلى الردهة و شرعتا تتبادلان الأحاديث و هما يشربان الشاي.

بعد قليل استأذن (قنسطنطين) من (سيرغي) ليلقي التحية على بعض المدعوين، فبقي (سيرغي) وحيداً مكتئباً ونيسه الوحيد كؤوس الخمر، حتى وقع نظره على (نتالي) فتوجه إليها لا تكاد تحمله قدماه من كثرة ما شربه من الخمر، فقد شرب أكثر من عادته كثيراً، عانقها من

الخلف وقال لها:

-حبيبتي بضع دقائق دونكِ شعرت فيها وكأنني في حداد عميق، أرجوكِ لا تتركيني وحيداً مرة أخرى، فأنا أصبحت أخاف من الوحدة وأنتِ لست بجانبي.

ثم نظر (سيرغي) إلى كاتيوشا وقال:

-أتدرين يا (كاتيوشا) بدأت أغار منكِ على حبيبتي (نتالي)

استغربت (كاتيوشا):

-مني أنا ولماذا؟

فقال لها:

-إن جمالكِ لا تخاف منه النساء على أزواجها فحسب وإنما أيضا الرجال يخافون على نسائهم منه.

فردت عليه (نتالي):

-(سيرغي) أرجوك من دون وقاحتك، فإن (كاتيوشا) خجولة جداً.

فقال لها (سيرغي) وهو لا يدري ماذا يقول:

- أتدرين يا حبيبتي أن بين الرجال هنا يوجد رجل قال لي أنه مستعد أن يضحي بكل ثروته مقابل أن يحصل على

(كاتيوشا).

أجابت (نتالي):

-إن كاتيوشا لا تشترى بالمال، وإنما تفدى بالروح .

فقال لها:

-يا حبيبتي إن (كاتيوشا) بالنسبة لي مجرد أخت صغيرة وجمالها بالنسبة لي لا يعنيني.

فأردفت (كاتيوشا):

-إن لي حبيباً لا أستبدله بكل ما في الدنيا من أموال.

فرد (سيرغي) وهو يتمايل سكراً:

-لا تستبدليه حتى لو قدم لك رجلٌ ثروته مقابل أن يحصل عليك؟

صرخت في وجهه (نتالي):

-إخجل من نفسك يا (سيرغي) فأنت ثملٌ تماماً.

فقال لها معتذراً:

-يا حبيبتي لست أنا وإنما (قنسطنطين) من قال هذا.

نظرت إليه (كاتيوشا) وسقط منها فنجان الشاي الذي كان في يدها، وانهمرت الدموع من عينيها، وهرعت إلى الشارع دون أن تتكلم، و تبعتها (نتالي) مسرعة تحاول أن

تهدأ من روعها وتعتذر لها عن ما قاله (سيرغي) مؤكدة لها أنه ثملٌ لا يقصد ما قد قاله.

أدخلت (نتالي) كاتيوشا إلى مكتبها، فأجلست (كاتيوشا) على صوفة مريحة علَّها تهدئ أعصابها، و جلست (نتالي) إلى جنبها و حضنتها كأنها أُختها الحنونة.

في الحقيقة كان هناك سببٌ يمنع (كاتيوشا) من أن تقبل المشروبات الروحية في الحفلة، فهي كانت شبه متأكدة أنها حامل، و رغم أنها كانت تشكو من دوار بسيط في الرأس و بعض الغثيان، ففرحتها كانت لا توصف، و كان يداعبها أملٌ أن تستقبل زوجها و هو عائد من الخدمة العسكرية و على يديها مولودهما.

وبينما (كاتيوشا) و (نتالي) في المكتب دخل (سيرغي) عليهما وقال لها:

-(كاتيوشا) اعذريني أنا متأسف، لم أكن أقصد أن أجرحكِ ولكنَّ الفودكا كانت ثقيلة على رأسي لذا أعطني يدكِ أقبلها.

نظرت إليه (نتالي) وقالت:

-أرجوك أظن أنك قد مزجت من كل أنواع المشروبات

الروحية، وهذا يكفيك ولا أريد أن نتخاصم بسبب هذه الأمور.

فقالت (كاتيوشا):

-لا أرجوكِ يا سيدتي (نتالي) لا أريد أن تتخاصموا بسببي وها أنا سأخرج.

صرخت (نتالي) قائلةً:

-(كاتيوشا) إبقي مكانكِ، وأنت يا (سيرغي) أرجوك أن تخرج في هذه اللحظة من هنا .

خرج (سيرغي) من دون أن يتفوه بكلمة، وأخذت نتالي تداعب شعر (كاتيوشا) الذهبي وتقول لها:

-يا صديقتي إن الجمال في بعض الأحيان يكون عبءً صعباً على صاحبته، فعليكِ أن تتحملي، واعلمي أنكِ بين قومٍ من الذئاب المفترسة، لن يتركوكِ وشأنكِ حتى يعود زوجكِ ويكون سندكِ الذي تعتمدين عليه، فعليك أن تكوني حكيمةٌ في تصرفاتكِ وتعتادي على هذا الشيء، لأن ذنبك في هذه الحياة أنكِ جميلة، ومن الممكن الآن أن تكوني حامل، ويجب عليكِ أن لا تغضبي لأن الغضب قد يؤثر سلباً على الجنين، لذا أريد منكِ أن لا تيأسي، وأن

تكوني بصحةٍ جيدةٍ من أجلك أنتِ، ومن أجل حبيبكِ وطفلكِ.

فقالت (كاتيوشا) و قد ظهرت ابتسامة خفيفة على شفتيها:

-شكراً لكِ يا (نتالي) الرائعة، فقد أثلجتِ صدري بكلماتكِ الممتلئة بالحكمة.

فقالت (نتالي):

-تعالي نذهب إلى بيتي لنكمل الحديث مع فنجان من الشاي الأخضر، فلا يوجد أحدٌ في البيت فوالدي مسافر .

ضغطت نتالي على جهاز اللاسلكي وقالت:

-(غريغوري) هيء لي السيارة أريد أن أخرج الآن.

عندما حضر (غريغوري) طلبت منه أن يتصل بخالة (كاتيوشا)، و يعلمها أن (كاتيوشا) قد خرجت مع السيدة (نتالي) إلى منزلها، و ذلك لكي لا تقلق عليها، ثم توجهوا إلى قصر (نتالي).

في القصر أصدرت (نتالي) التعليمات للخدم لكي يعدوا جلسة الشاي أمام بركة السباحة الداخلية، فأمضت الصديقتان الجديدتان وقتاً جميلاً و هما تستمتعان بالشاي

و الفواكه المجففة و المكسرات، و ذلك على أنغام الموسيقا الهادئة و دار حديثهما عن أمور تتعلق بالفن و الأدب.

دخلت (نتالي) و(كاتيوشا) بعد سهرتهما الطويلة غرفة نوم (نتالي) وتقاسمتا سرير (نتالي) الوثير، وما أن شعرت كاتيوشا أن (نتالي) قد غلبها النوم حتى تركتها في سريرها وخرجت إلى الحديقة تداعب زهورها وأشجارها وتتأمل السماء، وبعد وقت أمضته تتعرف على القصر الذي كانت مساحة حدائقه أشبه ما تكون ببستان جميل، وصلت الى بركة السباحة الخارجية فرأت رجلين مستلقيين على أرائك وضعت على ضفة البركة، و ما إن اقتربت حتى تعرفت عليهما، فإذ بهما (قنسطنطين) و (سيرغي).

ارتبكت كاتيوشا حين رأتهما ولم تعد تعرف ماذا تتصرف، أما (سيرغي) فقد استيقظ حينها من البرد و توجه مباشرة إلى غرفة نوم (نتالي) حيث كان شديد النعاس و التعب، أما (كاتيوشا) فقد وقعت في إحراج كبير لبقائها لوحدها مع (قنسطنطين) ولكن كان يبدو

عليه وكأنه لا يدري من التي تقف أمامه فكانت الفودكا قد فعلت فعلها في عقله و في جسده الذي غلب عليه النعاس و التعب، فذهب في سُباتٍ عميقٍ على ضفة البركة.

هذا ما أثار في قلب كاتيوشا الشفقة عليه فذهبت إلى القصر وأحضرت له غطاء رمته عليه بهدوء حتى لا تقلق سباته العميق، فعانق (قنسطنطين) الغطاء ورسم على وجهه تعابير الشكر.

ثم أكملت (كاتيوشا) مسيرها في حدائق القصر تنظر إلى السماء وتدعو الرب أن يكون حبيبها بخير وتقول: يا أيها الرَّب أعد لي حبيبي مثل ما ودعته واجعل أيامه جميلة وازل عنه هموم الغربة ويسِّر أمره يا أيها الرب.

ظلت كاتيوشا جالسةً على مقعد الحديقة حتى شروق شمس الصباح، حينما سمعت صوتاً يقول لها:

-حقاً إنكِ تزيدين هذه الزهور بهاءً وجمالاً.

نظرت كاتيوشا فرأت أنه (قنسطنطين) من يتكلم معها، فألقت عليه التحية وقالت:

-اسعدت صباحاً يا سيد (قنسطنطين)

فقال (قنسطنطين):

-كم هو صباحي رائع وكأنني مت لتستيقظ روحي في جنة تزينها حورية واحدة.

فأجابته:

-أرجوك لا تحرجني فأنا لا أحب أن أسمع هكذا كلمات سوى من زوجي.

فقال لها:

-أنا أعتذر جداً عن ما نقله صديقي (سيرغي)، فهو أخبرني بما جرى، وأنه بسبب كونه ثملاً قد أفشى دردشة لا معنى لها أو يمكن أن تسميها بعض أسرار الرجال.

-وهل للرجال أسرار؟

-نعم أكثر بكثيرٍ من أسرار النساء .

-أنتم الرجال غريبو الأطوار، فأنتم كطير (الغرغار) الذي يطير شرقاً وغرباً وكأنه لا ينوي على شيء، حتى تسنح له الفرصة فيرى فريسته في البحر فينقضُّ ويأخذ فريسته ولا يهمه حتى ولو افترسه سمك القرش.

فقال لها:

- هذه سُنَّةُ الحياة أيتها الجميلة فلولا النساء لما وجدت في

الرجال الشجاعة، ولولا النساء لما عرف الرجل اللّه، فالمرأة هي دائماً قُبلة الرجل.

الفصل السابع عشر:

أشرقت الشمس في اليوم التالي لعيد ميلاد (قنسطنطين) فأدفئت مياه بركة السباحة وجففت قطرات الندى عن أوراق الزهور، كما و أضاءت على وجه نتالي النائمة في فراشها لتفتح عيونها وترى (سيرغي) مستلقياً إلى جانبها و هو يرتجف من برده، ألقت الغطاء على جسد (سيرغي) حتى ينال قسطاً من الدفء، وخرجت تستمتع بهذا اليوم المشمس بين زهور الحديقة.

رفعت (نتالي) بصرها إلى السماء و أخذت تدعو ربها أن يكون هذا اليوم خيراً عليها و على جميع من تحب، ثم قامت بتشغيل جهاز الإذاعة المنزلية لتستمع إلى الموسيقا الصباحية الهادئة.

فقد كان في مدخل القصر جهاز في قمة الحضارة والأبداع، حيث يتصل به حوالي العشرين من مكبرات الصوت الموزعة بكل أنحاء الحديقة وغرف القصر، ويستطيع مستخدمه التحكم به عن بعد، وأن يوقف الصوت عن أيِّ جناحٍ يُريد.

إن كل مكبر صوت في هذا الجهاز يبدأ بثه بصوتٍ خفيفٍ، وكل ما اقتربتَ منهُ يبدأ بالارتفاع، فتستطيع تحديد قوة الصوت وانخفاضه بحسب المكان الذي تريد أن تكون فيه، وكانت (نتالي) راغبةً بالجلوس بحسب ما اعتادت إلى جانب شجرة التوت، فاختارت موسيقا هادئة و بصوتٍ مُنخفض.

اعتادت (نتالي) أن ترى الهدهد يغرد فوق شجرة التوت هذه، ولكنها فوجئت أنها لم ترى ذلك الهدهد، نظرت بتمعن فرأت جسده الميت يطفو على سطح البحرة وزغاليله متناثرة بين الأعشاب، وكان الغراب يطبع خيال قدميه على قميص (سيرغي) الذي كان مرمياً على الأعشاب بجانب البحرة.

هرعت نتالي بسرعةٍ إلى غرفة الحارس وكان بها بالإضافة إلى الحارس (غريغوري) الذي قدم للتو فرأى وجهها أصفراً و هي تكادُ تموتُ من الرُّعب، فسألها مندفعاً إليها:

-ماذا بكِ سيدتي، هل أستطيع المساعدة بأي شيء؟

لكنها لم تجب بل أشارت إلى بركة السباحة .

أرسل (غريغوري) الحارس إلى البحيرة حيث أشارت، وأخذ

سيدته إلى الداخل، ومباشرة أسرعت العمة (كوليا) بإحضار كأس من الليمون لنتالي، وبعد أن هدأت (نتالي) تكلمت بهدوء و قد بدا على وجهها التعب:

-لا أعرف ماذا حدث ولماذا شعرت بكل هذا الخوف ولكنني حلمت حلماً أخافني جداً، و عندما استيقظت شاهدت موت الهدهد وفراخه الصغار و الغراب الذي قتلهم فشعرت بالخوف الشديد لا أعلم لماذا..

فقال (غريغوري):

-سيدتي أراك متعبة و متوترة جداً، فهل هناك حاجة حتى أستدعي الطبيب؟

فقالت:

-لا ليس هناك حاجة، فالآن العمة (كوليا) تقرأ لي بعض الآيات القرآنية فتتحسن حالتي، وتزول هذه الطاقات السلبية عني.

وما أن أنهت (نتالي) عبارتها حتى كانت العمة (كوليا) قد بدأت صلاتها.

إن العمة (كوليا)، والبالغة من العمر حوالي الخامسة و الخمسين عاماً تعمل منذ سنوات عديدة في قصر (نتالي)،

و حيث أنها من جمهورية أوزباكستان، فهي مسلمة مؤمنة تقوم بكل فرائض الإسلام، وكانت (نتالي) قد بنت لها بيتاً صغيراً في أطراف القصر حتى تصلي به لأنها علمت أن الصلاة الإسلامية لا تجوز في مكان يوجد فيه الخمر .

اعتادت (نتالي) منذ صغرها على العمة (كوليا) والتي كانت كلما أصاب (نتالي) مكروه تضعها في أحضانها وتقرأ لها بعض الآيات القرآنية، فتشعر (نتالي) بالراحة ويطمئن قلبها.

لكن و من الغريب هذه المرة، رغم دعاء العمة (كوليا) لم تظهر على وجه (نتالي) علامات الراحة، بل بقيت خائفة ومرتجفة.

نظرت العمة (كوليا) إلى (نتالي)، وقالت لها مشجعة بصوتٍ صارمٍ:

- هيا يا بنيتي كفاكِ دلعاً، فأنتِ على ما يرام، سأذهب لأحضر لكِ طعام الفطور، وأنتِ أثناء ذلك استحمي بماءٍ ساخنٍ وستكونين على ما يرام.

ذهبت العمة (كوليا) تحضر طعام الفطور، وبقيت (نتالي) تنظر من النافذة إلى السماء، و هي تحاول أن تتذكر ماذا

رأت في ذلك الحلم المزعج.

فتذكرت أنها كانت في حلمها تمشي، ورأسها على كتف (سيرغي) وقالت له:

-(سيرغي) أنظر ما أجمل هذه الزهور، تبدو وكأنها من الجنة، فأخذ (سيرغي) يضحك ساخراً و هو يقول:

- أين الجمال وكل هذه الزهور لونها أسود دامس.

فقالت له:

-عن أي سواد تتكلم يا (سيرغي)؟ إنها بأروع الألوان الربيعية!!

فأجابها وهو يضحك ويتكلَّمُ بصوتٍ عالٍ:

-(نتالي) هل فقدتِ قدرتك على تمييز الألوان، ماذا بكِ إن كل ما ترينه الآن تزينه لكِ صورة مزيفة، فكلٌّ هذهِ الزهور سوداء اللون، والهدهد الذي ترينه الآن هو غراب.

حين تذكرت هذه التفاصيل أجهشت (نتالي) في البكاء خاصة بعد أن ربطتها بما رأته في حديقة القصر صباحاً.

استمرت (نتالي) في تذكر أحداث حلمها..

فقد أمسكت في حلمها بثياب (سيرغي)، ولم تكن تريده أن يتركها لكنه صرخ بوجهها قائلاً:

-اتركيني ألا ترين أن ذلك الغُلام يغرق وبحاجة لمساعدتي ..

فقلت له:

- يا (سيرغي) لا تصدق، هذا ليس بغلام، أنه جني يريد أن يسرقك مني..

ولكن (سيرغي) كان عنيداً جداً، فقد أفلت منها وقفز في البحيرة، وأخذت تصرخ وتبكي و تطلب منه أن يعود، ولكنه لم يكن يسمع ندائها...

تمالكت (نتالي) نفسها، ثم تنهدت و قالت لـ (غريغوري) و الذي كان ما يزال جانبها.

-لا أعلم يا (غريغوري) ما هي دلالة أحلامي هذه، هل هي نذير سوء، هذا الأمر بدأ يقلقني وأصبحت أخاف من ما يخبئه لي الزمن.

عادت العمة (كوليا) وقالت:

-هيا يا سيدتنا الصغيرة، إن طعام الفطور جاهزٌ وعليكِ أن توقظي السيد (سيرغي) من النوم حتى يشاركك وجبة الفطور قبل أن يبرد الطعام و يفقد لذته.

صعدت نتالي إلى الطابق العلوي حيث غرفة نومها، وأخذت

توقظ (سيرغي) وتقول له:

-هيا يا زوجي العزيز حتى نتناول وجبة الفطور، فهي جاهزة وأنت قد أخذت قسطاً يكفي من النوم .

لاحظت نتالي أن حرارته مرتفعة وهو بالكاد يجيبها، فقالت له:

-ما بك يا (سيرغي) هل أنت مريض ؟

رفع (سيرغي) رأسه و قد بدا عليه التعب وقال:

-لا يا حبيبتي لست مريضاً ولكنني مرهق بعض الشيء وأحتاج إلى المزيد من الراحة.

فقالت له نتالي:

-لا داعي للكسل هيا اغتسل بسرعة، وأنا بانتظارك لنتناول الفطور سويَّة.

فعانقها (سيرغي) وقال لها:

-أشعر وأنتِ بجانبي أنني أملك الدنيا، ولستُ بحاجةٍ لا إلى الطعام ولا الشراب.

حاول (سيرغي) القيام من الفراش، إلا أنه بالكاد كان يستطيع أن يقف على قدميه مما دعا (نتالي) أن تلاحظ عليه ذلك فأخذت تقول له:

- هذه هي نتائج شرب الخمر في غير حدود، فأنت في ليلة الأمس شَربتَ بحراً من الخَمر، وسَكرت وأخذت تهذي بالكلام حتى صنعت شرخاً بين (كاتيوشا) و(قنسطنطين).

فقال لها:

- يا (نتالي) إن لي صديقاً واحداً هو (قنسطنطين)، وأنا لم أكن أقصد أن أسبب له أي إحراج، و الأهم من ذلك أن لي حبيبةٌ واحدةٌ هي أنتِ، وأنا آسف عن أي تصرف أحمق تصرفته بسبب الخمر.

عادت (نتالي) إلى غُرفة الطعام حيث كان (غريغوري) والعمة (كوليا) بانتظارها و صادف أن أتى في تلك الفترة التي كانت بها (نتالي) مع زوجها في الغرفة قدم سائق (سيرغي) وأخذ ينتظر (سيرغي) حتى ينزل .

لاحظت (نتالي) أنَّ السائق يحمل بيده كيساً صغيراً يوجد فيه ما يشبه الدواء، وكان هذا السائق مرتبكاً جداً وخصوصاً بعدما سألته (نتالي):

- ما هذا الدواء الذي في يدك؟

فما كان من السائق حتى أخذ يتلعثم بالكلام، ولا يعرف

ماذا يجيب ثم قال لها:

- يوجد بهذا الكيس حقنة يجب أن أعطيها لسيدي (سيرغي) فإن طبيبه الخاص قد أوصاني بذلك.

فقالت له:

- أي طبيب؟ وأي حقنة ؟ أجبني بدقةٍ لو سمحت ؟

فقال لها:

- يا سيدتي هذا كل ما أعلمه ولا أعلم شيء غير هذا.

بعد قليل جاء (سيرغي) وكان يبدوا وجهه شاحباً ويبدو عليه اليأس والقنوط، تكلَّمَ مع سائقهِ بصوتٍ هامس واستأذن من (نتالي) أن يدخل الغرفة بعض الوقت مع سائقه.

بدا على وجه (نتالي) القلق، وجلست على الكرسي وهي تأكل أظافر يدها، وتهزُّ بقدميها، وكان يبدو عليها التوتر.

وبعد حوالي الخمسة عشر دقيقة من الزَّمن خرج السائق من الغرفة وقال:

-إن سيدي (سيرغي) مريض وحرارته وصلت إلى الأربعين درجة، وهو بحاجةٍ إلى الدواء وأنا ذاهب إلى الصيدلية

لإحضاره.
صرخت (نتالي) مباشرة بعد كلام سائق (سيرغي) وقالت:
-(غريغوري) اذهب بسرعة واستدعي طبيبي الخاص وتوجهت إلى غرفة (سيرغي).
وصل الطبيب، ودخل إلى الغرفة التي تمدد فيها (سيرغي) فرآهُ جَسداً هامداً، يرتجفُ و تصتكُ أسنانهُ ببعضها.
فحص الطبيب حالة (سيرغي) وقال لـ(نتالي):
-حسناً لا تقلقي إنها حالةٌ عاديةٌ جداً بعد ليلةٍ صاخبةٍ، فالخمر سبَّبَ له وعكةً صحيةً، يوم واحد ويعود إلى حالته الطبيعية، أما من ناحية الخمول والتعرق و الاضطرابات فأنا بحاجةٍ لبعض التحاليل حتى أحدد النتيجة.
عاد السائق بعد قليل وكان الطبيب لا يزال يتكلم مع (نتالي) وهو يحمل بيده بعض الأدوية، فعرض الأدوية على الطبيب، وعندما رأى الطبيب الأدوية قال له:
-كل هذا جيد ولا يضر، ولكن يوجد بين هذه الأدوية دواء مهدأ للأعصاب وهو قوي جداً، ولكنني لا أعلم ما دوره في مرضه، ولا يوجد داعي لاستعماله، كما أنه من الأدوية الممنوع تداولها.

ذهب الطبيب بعد أن فهمت منه (نتالي) هذه الأمور وما هي التحاليل المطلوب إجرائها لاحقاً، وطلبت من السائق أن يترك (سيرغي) حتى يرتاح.

خرج السائق من الغرفة، وهو يتكلم على الهاتف مع شخص ما، وكانت ملامح وجهه يبدو عليها الاضطراب.

الفصل الثامن عشر:

بعد خروج (كاتيوشا) من قصر (نتالي) بعد أن رفضت أن يرافقها (قنسطنطين)، توجهت إلى بيت (أنطون) حيث لم ترغب بالإقامة فيه بعد ذهاب (أنطون) إلى الخدمة العسكرية، فقد خطر ببالها أن تتفقد المنزل وترى ما إذا وصلها شيء إلى صندوق البريد الذي أمام المنزل، كان أملها في محله، فقد وجدت رسالة من (أنطون) ملأها بأجمل عبارات الحب و الغزل و الشوق، و في أخر الرسالة كتب يقول أنه ينام و يحلم بذلك اليوم الذي سيأتي فيه إليها بعد الخدمة العسكرية، فتستقبله و طفلهما على يديها، ما إن قرأت (كاتيوشا) هذه العبارة حتى انهمرت الدموع من عينيها بغزارة، لأنها تأكدت أن اعتقادها بأنها حامل هو في غير محله، فقد عادت لها حالتها الجسدية الطبيعية و التي تؤكد أنها ليست حاملاً.

أخذت تبكي وتقول في داخلها: آه يا حبيبي كنت أتمنى ذلك لولا أنني في هذا اليوم فقدت هذا الأمل الذي كنت سأستمدُ منه صبري في غيابك...

قرأت كاتيوشا الرسالة، وبكت أكثر من ساعتين حتى أنهكها البكاء، ومن ثم غرقت في نوم عميق لم تكن تريد الخروج منه لولا صوت طرقات الباب، كانت خالتها تناديها من خلف الباب وتقول لها:

- أين أنتِ أيتها العروس الجميلة، ها قد أصبحت الساعة السابعة مساءً استيقظي.

فتحت (كاتيوشا) الباب لخالتها، فعانقتها خالتها مباشرةً وأخذت تقول لها:

- ما بك يا حبيبتي؟ لماذا أنت بهذا الاصفرار وجسدك ينحف يوماً بعد يوم؟

-لا أعلم يا خالتي، فأنا أشعر وكأنني لن أرى (أنطون) ثانية.

-كفاكِ تشاؤماً يا حبيبتي لم يمضي شهرٌ على غيابه بعد، وها هو في المدينة وقريباً تستطيعين زيارته ولكن اصبري حتى يكمل الشهر الأول من الخدمة.

لقد كانت خالة (كاتيوشا) تعاني من مرض السكري وهي بحاجة إلى الابتعاد عن التوتر والهموم، ولكن وضع (كاتيوشا) أخذ يقلقها، وهي في الحقيقة لا تعلم ما

تستطيع فعله لأجلها.

خرجت (دنئيلدا ايفانوفنا) بعد أن اطمأنت على نتالي و ذهبت إلى عملها ودخلت كاتيوشا حتى تستحم، بعدها أخذت تكتب رسالة إلى (أنطون)، وعندما أنهتها توجهت خلف خالتها إلى نادي (الدي أند نايت)

وصلت (كاتيوشا) النادي فصادفت (قنسطنطين) يقف في مدخل النادي مما أجبرها على أن تلقي التحية عليه:

-كيف حالك سيد (قنسطنطين)؟

فأجابها:

-إن حالي حال عجوزٍ قتلتهُ جميلة صغيرة .

تجاهلت (كاتيوشا) كلماتهُ، ودخلت النادي فرأت (غريغوري) يقول لها:

-لماذا تأخرتِ يا (كاتيوشا) لقد عملت عوضاً عنكِ مكان خالتكِ.

فقالت:

-كيف هذا ؟ إن خالتي قد كانت منذ وقتٍ طويلٍ عندي وقالت لي أنها آتية إلى هنا.

فقال (غريغوري):

-هذا غريب فهي لم تأتي اليوم إلى هنا.

جلست (كاتيوشا) على الكرسي، وأخذت تبكي وتدعو الرب أن لا يكون قد أصاب خالتها مكروه.

فقال (غريغوري):

-اهدئي ولا تجهشي بالبكاء، حالاً سأعرف لك أين هي.

تقدم (قنسطنطين) من (كاتيوشا) وقال لها:

-ما بكِ لماذا تبكين؟

فأجابه (غريغوري):

-أن خالتها أخبرتها أنها آتية إلى هنا منذ مدةٍ، وهي لم تأتي إلى هنا نهائياً.

اتصل (قنسطنطين) بهاتفه الجوال والذي كان في تلك الأثناء لا يزال اختراعاً جديداً ولا يحمله إلا ذوي السلطة والمال بأحد الأشخاص وقال له أن يذهب إلى جميع مراكز الإسعاف ويسأل عن خالة كاتيوشا بعد أن أخذ الاسم الكامل لها من (غريغوري).

بقي (قنسطنطين) و(غريغوري) بجانب (كاتيوشا) يحاولان طمأنتها و التخفيف عنها.

بعد فترة من الزمن سمع (قنسطنطين) رنين هاتفه الجوال

فابتعد قليلاً و ردَّ على المكالمة حيث أنه انتبه أن المتصل هو نفسه الشخص الذي وكله بالبحث عن خالة (كاتيوشا) في مراكز الإسعاف، فسمع الرجل يقول له:

-إن شككم كان في محله يا سيدي، إن المرأة التي تسألون عنها قد نقلت على متن سيارة الإسعاف إلى المشفى المركزي، فقد أُغمي عليها و سقطت أرضاً وهي تقف بانتظار الحافلة وللأسف فهي الآن بحالةٍ حَرجة.

لم يخبر (قنسطنطين) (كاتيوشا) ما قد علمه من خلال هذا الاتصال ولكنه قال لها:

-تعالي معي لقد علمت أين هي خالتك.

شعر (غريغوري) وكأن (كاتيوشا) لم تكن راغبةً بالذهاب مع (قنسطنطين) لوحدهما، فاتصل بسيدته طالباً منها إذناً لأمر ضروري ثم أنطلق معهما.

عند وصولهم إلى المستشفى كانت (كاتيوشا) قلقة وقدماها لا تكادان تحملانها وكان (قنسطنطين) طوال هذا الوقت يسندها بذراعه، سأل (قنسطنطين) موظفة الاستقبال في المشفى عن القسم الذي توجد به المريضة فعلموا أن خالة (كاتيوشا) في قسم العناية المشددة حيث

أصيبت بجلطةٍ دماغيةٍ.

انتظروا فترة من الزَّمن أمام قسم العناية المشددة حتى خرج الطبيب وسألهم:

-هل يوجد أحد من أقرباء (دنئيلدا)؟!

فقال (قنسطنطين):

-أن هذة هي حفيدتها.

أخذ الطبيب (كاتيوشا) جانباً وقال لها:

-يا صغيرتي لقد وصلت إلينا خالتكِ بعد فوات الأوان، فعلنا ما بوسعنا لإنقاذها ولكن مشيئة اللّه كانت أن (دنئيلدا) قد فارقت الحياة منذ ربع ساعة تقريباً.

انفجرت (كاتيوشا) حينها بكاءً و انهارت، حيث لم تعد تقوى على الوقوف، و هرع (قنسطنطين) و (غريغوري) إليها محاولين مواساتها وتهدئتها قدر إمكانهما في هذه الفاجعة.

قام (قنسطنطين) باتصالاته لترتيب مراسم الدفن وتوجه (غريغوري) و(كاتيوشا) إلى النادي وظل (قنسطنطين) في المشفى ليتمم الأوراق المطلوبة من أجل الدفن، حيث أحضر محامياً إلى المشفى بعد أن أمضت له (كاتيوشا) توكيلاً

عنها لاتمام الأمور القانونية.

كان (غريغوري) في تلك الأثناء قد اتصل بسيدته (نتالي) وأخبرها عن وفاة الخالة (دنئيلدا) المفاجئة، حيث وما أن وصلت (كاتيوشا) إلى النادي حتى كانت تنتظرها مع زوجها (سيرغي)، والذي قَدِمَ رغم مرضه، فقابلا (كاتيوشا) بالأحضان والدموع، فقد كان الأسف حقيقياً على رحيل هذه المرأة الرائعة التي أمضت سنين عمرها في خدمة الناس ولم تؤذي أحداً في يومٍ من الأيام .

كانت (نتالي) شديدة التأثر لأنها كانت تعتبر الخالة (دانئيلدا) ليست عاملة عادية، بل كانت تودها و تحترمها وكأنها ترى ذكرى أمها بها.

كانت (نتالي) تحضن (كاتيوشا) إلى صدرها طوال الوقت وأخبرتها أنهُ يجب أن تقضي هذه الأيام الصعبة معها في القصر، وأنَّ (سيرغي) سيذهب إلى بيته حتى تخرج (كاتيوشا) من أزمتها .

أما (قنسطنطين) فقد كان في هذه الظروف من الأشخاص الذين يقل مثيلهم في الدنيا ، حيث تَكفَّل بكل مراسم الدفن والإجراءات القانونية اللازمة لذلك، لأنه من

المعروف في روسيا أن مثل هذا الإجراءات تأخذ وقتاً طويلاً كما وتكلف مبالغ مالية كبيرة.

كانت (دنئيلدا) من الأشخاص الذين كانوا يجمعون المال تحسباً لهكذا يوم، ولم يكن (غريغوري) يعلم بهذا لولا أن (كاتيوشا) قد طلبت منه أن يوصلها إلى البيت حتى تحضر شيء ما، وعندما عادا تقدمت من (قنسطنطين) وقالت له:

-لو سمحت قل لي كم كلفتني مراسم و إجراءات الدفن هذه، لأن وصية خالتي كانت أن أصرف النقود التي جمعتها لتغطية نفقات الجنازة، فهي كانت تقول لي أنها تريد أن تموت وتدفن وهي مرتاحة الضمير، فأرادت هي أن تتكفل بكل مصاريف دفنها.

لكن (قنسطنطين) رفض بشدَّة أن يتكلم في هذا الأمر، ورفض أن يأخذ منها المال بل اعتبرهُ إهانةً لهُ.

طال هذا الجدال مما دعا (غريغوري) أن يتدخل في الحديث ويطلب من (كاتيوشا) أن تهدأ، وأن تذهب معه إلى الكنيسة لكي تصلي لروح خالتها، وتضع هذا المال في الكنيسة حتى يوزع على المحتاجين من الناس.

توجه (غريغوري) إلى الكنيسة مصطحباً (كاتيوشا) على أمل أن يقابل تلك الراهبة الطيبة التي ترتاح القلوب عندما تقابلها وتخشع بأمان أمام أيقونة السيد المسيح وأيقونة مريم البتول.

عندما دخلا الكنيسة أسرعت (كاتيوشا) بخطوات سريعةٍ وسجدت أمام الصليب، وأخذت تدعو الرَّب أن تنزل رحمته على خالتها وأن يجعل مثواها الجنة، لأنها لم تكن يوماً تتأخر في مساعدة أحد، وأخذت تندب خالتها أمام الملأ وعيونها تبكي، وتأثر كل الحضور لحزنها، مما دعا الكاهن لأن يقول لها:

-يا ابنتي فليرحم الرَّبُ خالتكِ، وتقبلي مني التعازي، واسمحي لي ولباقي المصلين الموجودين هنا أن نُقيم الصلاة لأجل راحة روح الفقيدة.

قبَّلت (كاتيوشا) يد الراهب وقالت له:

-يا أبونا من فضلك أطلب من الرب أن يتقبلها في فسيح جناته لأنها أمضت حياتها وهي تسعى في عمل الخير.

صمت الجميع في قاعة الكنيسة ليعلو صوت الأب الروحي الباعث للطمأنينة في قلوب الناس.

عندما انتهت الصلاة رأى (غريغوري) تلك الرَّاهبة الطيبة فاقتربت منه و سألته:

-تقبل مني التعازي يا أيها الأخ (غريغوري) هل الفقيدة تخصك؟

-نعم إنها كانت زميلةُ عمل وصديقةٌ وأُخت، وهذه الفتاة الجميلة هي ابنة أُخت الفقيدة.

ضمت الرَّاهبة الطيبة (كاتيوشا) إلى صدرها، وعيون (كاتيوشا) لا تكفُّ عن البكاء، وأخذت الراهبة تواسيها بكلامٍ طيبٍ، وختمت كلامها مع (كاتيوشا) تقول لها:

-نعم يا ابنتي أن فِراق الأحبة صعب، ولكن قبول أمر اللّه برضا هو نعمةٌ يجازي الرب عليها خيراً، فسلِّمي أمرك إليه واشكريه على نعمته، وقولي لهُ: يا رب أنت صاحب المشيئة ونحن الطائعون، فاغفر لنا خطايانا وارحمنا يا أرحم الراحمين.

خرج (غريغوري) مع (كاتيوشا) من الكنيسة وكانت (كاتيوشا) قد بدا عليها الارتياح بعض الشيء، وأخذ (غريغوري) يُطيل الوقت الذي يستغرقه الطريق و هو

يواسيها و ذلك ليطمئنَّ على أنها أصبحت بحالةٍ أفضل، عندما وصلا إلى النادي كان (قنسطنطين) قد صنع مُفاجئة لكاتيوشا حيثُ ما أن وصلت حتى رأت والدتها تنتظرها على مدخل النادي و قد كانت للتو واصلةً من القرية.

ارتمت (كاتيوشا) في أحضان والدتها، و قد كانتا كِلاهما تبكيان بحرقةٍ، وأخذت (كاتيوشا) تقول لأُمها:

-اطمئني يا أمي إن خالتي الآن في جنة الرضوان عند ربها، لقد تحقق حلمها الذي كان يراودها كل العمر...

إلا أنني أشعر يا أمي أنني ساهمت في موتها، فإنني أضفتُ لأحمالها أكثر مما تستطيع تحمله، فقد كنت أشكي لها بُعدي عن حبيبي، وأبكي أمامها، ونسيت أن قلبها قد لا يحتمل..

كنتُ أنانيةً يا أمي سامحيني أرجوكِ واطلبي من خالتي أن تُسامحني.

نظرت إليها أُمها وقالت:

-يا ابنتي منذ أسبوعٍ وأنا أراكِ باكيةً في حُلمي، الآن رحلتْ خالتكِ الطيبة وزوجك في غُربةٍ، وأنا أراكِ وأنت

تذبلين أمام عيني، ماذا فعلت بكِ المدينة؟ كيف حولتكِ من ملاكٍ رائعٍ يجول حقول القرية والبسمة لا تفارق وجههُ، إلى وجهٍ بائسٍ حزين.

الفصل التاسع عشر:

إن الغراب الذي مَزَّق عُشَّ الهُدهد في حديقة نتالي وقتل صغاره، حيث تطايرت زغاليلها في الفضاء لتصطدم بالأرض الصلبة على رصيف البحرة حسب ما رأته (نتالي) في الحلم، لعلَّهُ كان رؤية تقول أن القدر قد بدأ ينفذ قراراته.

فبعد يومين من الحلم ترحل خالة (كاتيوشا) والتي كانت بالنسبة لـ(نتالي) من المقربين إليها، وكأنها أم لها بالحنان والوفاء.

وبعد يومين من البكاء والحزن على فقدانها و اشتداد مرض (سيرغي)، تفاجأت (نتالي) برجال الشرطة يحاصرون بيتها ويفتشونه أشد تفتيش.

إن روسيا في تلك الأثناء كان يأكلها ويغلغل فيها الفساد، وقد ملأ الألم قلوب الناس الذين تقبلوا انحلال الاتحاد السوفييتي على أمل أن تَعُمَّ الديمقراطية البلاد، ولكن هذا التغيير الذي كان يأمل منه الشعب خيراً لم يكن سوى قناع يختبئُ خلفه ثُعبانُ الفساد و الذي عاث بسمومه

ﻓﻲ الأرض، ليستيقظ الشَّعب بعد أقل من عقد ويجد نفسه بائساً وجائعاً، والفقرُ قد سيطر على أكثر من تسعين بالمائة من الشعب، ولا بُدَّ لهذا الفقر والجوع من أن يولِّدَ الإجرام، لينتشرَ القتلُ والاغتصاب والسَّرقة ﻓﻲ كلِّ أزقة البلاد وﻓﻲ وضح النهار، وأصبح القوي يأكل الضعيف، لتخلو خزينة الدولة ويقع هذا البلد ﻓﻲ انهيارٍ اقتصادي، كما وخلت مؤسسات الدولة من الرجال القادرين على إدارتها، و لكن وكما تنبعث العنقاء من الرماد كذلك تفاجئ العالم بين ليلةٍ وضُحاها بقيادةٍ جديدةٍ غيرت مجرى البلاد بسرعةٍ لا يتوقعها أحد، وأخذت تزجُّ برؤوس الفساد ﻓﻲ السجون.

أسس القادة الجدد جهازاً لمكافحة الفساد، ولم يكن هذا الجهاز يرحم أحداً من الذين كانوا يدعمون هذا الفساد، فقامت الدولة بمصادرة أموال العديد من الوزراء و المدراء ﻓﻲ المؤسسات العامة وإرجاعها إلى خزينة الدولة، حتى أصبح العديد من هؤلاء بين ليلة وضحاها لا يملكون سوى وسادةً عفنة ﻓﻲ زنزانةِ الفساد التي هي مكانهم الذي كان يجب أن يكونوا فيه منذ زمن، كما وقامت الدولة

بالحجز على قصورهم التي بنوها من أموال الشعب المسكين، وتمَّ بيعها بالمزاد العلني، وثمنها أيضا ذهب إلى خزائن الدولة.

فأن تكلمنا عن هذه الحالة التي وقع فيها هذا البلد العظيم، فإنها تدلُّ على أنَّه مهما ظلم الظالمون، ومهما تفشى فسادهم في الأرض، فلن يموت الحق، فإن الحق قد يمرُّ في حالةِ سباتٍ مؤقتٍ، ليستيقظ في لحظةٍ، ويحمل بيدهِ سيفهُ المسلول، فيقطع رأس الباطل وأهله، وهذا ما حصل مع والد نتالي في قصتنا هذه، فقد وقّع استقالته من العمل وجهُّزَ نفسهُ للهرب بعد أن تمارض ودخل المشفى إلى حين أن رتب أموره وسافر إلى إحدى الدول الأوربية تاركاً (نتالي) تُعاني من مشاكلٍ عديدةٍ مع القضاء .

في تلك الأثناء مضى أسبوع على وفاة الخالة (دنئيلدا) و بحسب العادات الروسية اجتمع أصدقاء وأقارب الفقيدة يحيون ذكراها على مأدبة طعام و يشربون الفودكا في ذكرى وفاتها الأسبوعية، في العادة يسكبون كأس فودكا للفقيدة و يضعونه أمام كرسي من المفترض أنه كان لها و يغطون الكأس بقطعة خبزٍ أسود.

كان الحضور إضافة لـ (كاتيوشا) و والدتها ، (نتالي) و (سيرغي) و (قنسطنطين) و بعض أصدقاء و معارف الفقيدة.

سألت (نتالي) (كاتيوشا):

-ماذا تنوين أن تفعلي الآن بعد ذهاب زوجكِ للخدمة العسكرية ووفاة خالتكِ رحمها اللّه.

فقالت لها (كاتيوشا):

- لا أدري، فغداً ستسافر أمي إلى القرية، وهي ترغب بأن تأخذني معها إلى هناك، ولكنني لا أرغب بالذهاب إلى القرية دون أن يكون (أنطون) معي.

فأجابتها (نتالي):

-لا يا صديقتي لن أدعكِ تذهبين إلى القرية، بل أريدكِ أن تبقين معي ونعمل مع بعضنا البعض، و نتقاسم همومنا و نخفف عن بعضنا البعض، فكلانا تفتقد من تحب، فزوجك بعيد و كذلك والدي.

فعانقتها (كاتيوشا) وقالت لها:

-واللّه إن الرب قد أرسلك لي ، فلولاكِ لم أكن أعلم ما قد يحلُّ بي.

عادت أم (كاتيوشا) بعد مَضيِّ الأسبوع إلى القرية بسيارة خصصها لها (قنسطنطين)، وأصرت (نتالي) على أن تسكن (كاتيوشا) معها في البيت.

ولكن نتالي لما تحمله من فطنة واحترام لمشاعر كاتيوشا أمام زوجها، فقد حولت منزل والدها إلى مكتب رئيسي لشركتها، وعينت (كاتيوشا) مسؤولة المكتب، ونظمت عقداً بذلك بينها وبين (كاتيوشا) ينصُّ في بنوده أن عليها أن تقطن في هذا المكتب بسبب الأعمال التي قد تكون على مدارِ الساعة.

وبحكم أن هذا المنزل كان مُسجلاً باسمها في دوائر الدولة لم يستطع القضاء تخليصه من (نتالي)، حيثُ أثبتت أنها تملكه ملكيةً خاصةً ولا علاقة لوالدها به لا من قريبٍ ولا من بعيد.

إن الحياة الجديدة التي دخلتها (كاتيوشا) مع (نتالي) قد وطدت العلاقة أكثر بينهما، وأيضا بين (قنسطنطين) و(كاتيوشا)، والذي أصبح تردده إلى المكتب مستمراً بحكم علاقة العمل المشتركة بينهُ وبين (نتالي)، وهذا جعله يتقرب أكثر فأكثر من (كاتيوشا) وأصبحا يريان

بعضهما بشكلٍ يومي.
أما (سيرغي) زوج (نتالي) فقد بدأت ترحل عن وجهه البسمة التي عهده الجميع بها، فكان وضعه قد أَدخل (نتالي) في الحيرة والحزن ولا تعلم ما الذي قد جرى له، فقد أصبحت تصرفاته غريبة، وأصبح يهذي بكلماتٍ غريبةٍ ويقول: من أنا؟ ومن أنت، و أعيدوني إلى أهلي...
اتصلت نتالي بالطبيب ليكشف عليه، ولكن كل شيء استطاع الطبيب فعله هو أن يعطيه حبوباً مُهدئة.
من الأمور التي كانت تشغل بال (نتالي) ذلك السائق الذي لم يكن يترك (سيرغي) ولا لحظة قبل أن يتزوجها، وما هي تلك الأُبر التي كان يوخزه بها وعلى الفور يتعافى (سيرغي) بسببها، ولكن هذه المرة سافر هذا السائق لمدة أسبوعين بعد أن طلب من (سيرغي) إجازةً ليذهب إلى قريته ولا أحد يعلم ما قصة هذه الحقنة سوى هو، و (سيرغي) فما هذا الغموض الذي كان يلبس هذا الرجل ولا أحد يستطيع حل لغزه.
فمنذ ذلك اليوم لم يعد (سيرغي) يخرج من بيته، وأخذ التشاؤم يغلب عليه وأصبح وجههُ شاحباً والأحلام

والكوابيس تحرمه من النوم.

فبين ليلةٍ وضحاها تغيرت أحواله، وأمست حرارته مرتفعة دائماً، وصُراخه كان يُسمَعُ إلى آخر الحي، وأصبحت (كاتيوشا) و(قنسطنطين) لا يفارقان (نتالي) الموجودة دائماً إلى جانب (سيرغي)، لأن التحاليل الطبية الأخيرة لـ(سيرغي) كانت ترجح أنه قد أُصيب بانفصامٍ للشخصية بعد تناوله كمية من الكحول التي يعتقد أنها فاسدة، لذا كان يجب أن يكون بجانبه أحد الأشخاص بشكلٍ دائمٍ، لأنه أصبح غير مسؤولاً عن تصرفاته وقد يؤذي نفسه بشيءٍ ما.

وها هو (سيرغي) الذي كان يلقب بالسعيد نسبة للفكاهة التي يصنعها، والبسمة التي لا تفارق وجهه، قد أضحى اليوم شخصاً كئيباً صامتاً، ينظر طوال الوقت إلى السَّماء وكأنه لا يرى أحداً حوله.

أما (نتالي) فقد بدأت تفكر بهذه الأيام كيف انقلبت، وكيف تتبدل حياة البشر فيخيم سوادها على بياضها، ليجعله ظلاماً دامساً في وجه أصحابه، وتفكر بذلك السائق الذي اختفى لأسبابٍ غير معروفة ولا أحد يعلم أين

يسكن، فإن (نتالي) كل ما تعلمه عن (سيرغي) أنه يعيش في داره الكبيرة مع سائقه، وأيضا (قنسطنطين) كان يُعرف (سيرغي) وسائقه من خلال النادي فقط، لأنه في روسيا جرت العادة أن الأصدقاء لا يتدخلون ولا يسألون من يتعرفون عليه عن خصوصياته حتى لو دامت هذه الصداقة سنوات عديدة.

الفصل العشرون:

أما انطون هذا الجندي المرح الطيب العاشق الذي كان يعد الساعات وينتظر انتهاء الأشهر ليعود الى أحضان زوجته، فقد كان طوال الوقت يرسم صوراً لكاتيوشا ويعلقها في غرفته، حتى أنه رسم وشماً على صدره بصورة كاتيوشا.

كانَ يُكمل خدمته في منطقةٍ غير بعيدةٍ عن المدينة وذلك بفضل علاقات (قنسطنطين) ولكن أنطون لم يكن له علم بذلك، ولا يعرف حتى من هو (قنسطنطين)، ولا يعلم أن كاتيوشا وراء هذا.

فطيلة هذه المدة في الخدمة لم يكن يعلم عن (كاتيوشا) حبيبته شيئاً سوى أن خالتها قد ماتت، وأنها تعمل في مكتب السيدة (نتالي) مديرةً لأعمالها.

أصبح جميع الذين يعرفون أنطون في الخدمة من الجنود والضباط يعرفون مدى عشقهِ لحبيبتهِ من صورتها التي وشمها على جسدهِ، ومن كلمات أشعاره التي كان ينظمها لها.

كان هناك شخص اسمه (مكسيم) يعمل كساعي بريد في المنطقة التي كان يُكمل فيها أنطون خدمته الإلزامية، وكان في كُلِّ أسبوعٍ في بداية خدمة (أنطون) يقول له:

-يا (أنطون) جهز الفودكا وهات البشارة، وصلت رسالة لك من حبيبتك.

ولكن (أنطون) في هذه الفترة كان كل ما يرى (مكسيم) ساعي البريد، يجهز له البشارة، وينتظر منه أن يقول له وصلتك رسالة، ولكن (مكسيم) كان يهزُّ برأسهِ يميناً ويساراً، أي أنَّهُ ما من رسائل جديدة له.

أكثر من مائة ليلةٍ و(أنطون) لا يعرف ما هو طعم النوم والرَّاحة ينتظر رسالة من كاتيوشا تريح قلبهُ.

وبعد هذا العناء كُلَّه أخيراً سمع (أنطون) صوت (مكسيم) يناديه ويقول له:

-لقد استيقظت (كاتيوشا) يا (أنطون) ها هي رسالتها معي.

وما أن سمع (أنطون) الخبر حتى انهمرت عيناه بالدموع وكان يجلس بجانبه أحد الضابط، فاستغرب هذا الضابط عندما رأى (أنطون) يبكي، لأن (أنطون) كان

عندما يشعر بالوحدة ويحتاج للبكاء لا يدع أحد يلاحظ عليه ذلك.

فسأله الضابط:

-لماذا تبكي يا (أنطون) هل حدث مكروه لـ(كاتيوشا) لا قدَّرَ اللّٰه.

فقال:

-لا يا سيدي ولكن منذُ مُدَّةٍ لم أرى رسائلها، وعندما وصلت رسالتها الآن انهمرت دموعي ولم أستطع أن أمنعها.

إن (أنطون) و خلال خدمته الإلزامية والتي مدتها أربع مائة وثمانون يوماً، كان يلصق في أسفل سريره أعواد ثقاب بعدد هذه الأيام، وكان في كل يوم يمضي يأخذ من هذه الأعواد عود ثقاب ويضعه في ظرف ويكتب بعض الكلمات عن اليوم الذي مضى وهو بعيد عن حبيبته، من أجل أن يحرقهم عندما يعود إلى حبيبته بعد انهاء خدمته.

كان (أنطون) جندياً مُنضبطاً ومُهذباً، ولم يسجل عليه أي مُخالفة أو أي مخاصمة مع أحد من رفاقه، وكان خدوماً لأصدقائه وكريماً، وقد قَلَّ من هم من أمثاله من حيث تربيته الصالحة.

كان (أنطون) دائماً ينتظر من رسائل (كاتيوشا) أي خبر أو تلميحٍ عن جنينهما، والذي قد تكون تحمله في أحشائها، حسب ما كان يأمل، ولكن (كاتيوشا) في كل رسائلها لم تكن تذكر شيء عن ذلك، وكان (أنطون) يعتقد أن (كاتيوشا) لرَّبما تتوقع أنه قد نسي موضوع الحمل، ولكنها ستصنع له مفاجئةً في موعد عودته، وكان (أنطون) أيضاً لا يذكر هذا الموضوع في رسائله لـ(كاتيوشا) حتى لا يفسد عليها فرحتها في أن تفاجئهُ بعد عودتهِ وابنهُ على يديها.

ولكن في الحقيقة ما كان يحزن (كاتيوشا)، ويجعلها مكتئبة كُلَّ هذا الاكتئاب في الفترة الأخيرة، هو أنها بعدما علمت أنها ليست حاملاً، تذكرت العينات الطبية التي أجرتها في مُختبر التحليلات الطبية لها ولزوجها في بداية زواجهما، فطلبت من (نتالي) أن تذهب معها لتتأكدا من دقَّةِ نتيجةِ الفحص، ومن خلال إجراء المزيد من التحليلات على العينات المحفوظة تبيَّنَ أن (أنطون) عقيم وغير قادر على الإنجاب، وحيث أن احتمال نجاح علاجه هو بنسبة واحد بالعشرة آلاف.

وقع هذا الخَبر كالصاعقة على رأس (كاتيوشا) والتي ارتمت في أحضان (نتالي) وبدأت بالبكاء، و التي أخذت تهدئها، وأيضا منعتها من أن تخبر (أنطون) بالخبر، حفاظاً على مشاعرهِ، و نصحتها أن تترك هذا الموضوع للزمن و هو سيتكفل بحلِّهِ.

بقيت (كاتيوشا) تفكِّرُ في هذا الموضوع ويشغل بالها، إلى حين أن اشتد المرض على (سيرغي) وأصبح الجميع منشغلاً بمرضهِ وبمصيبةِ (نتالي)، والتي سابقاً قد هونت كثيراً من هموم (كاتيوشا)، والتي رأت أن مشكلتها أبسط بكثيرٍ من مشكلة (نتالي)، وما كان يريحها في الموضوع ويواسي كربتها أنها تعلم أن حبيبها (أنطون) بخير وصحة جيدةٍ، ولا بد أن يأتي اليوم الذي يجمعهما من جديد بعد إنهائهِ خدمتهِ الإلزامية.

تولت (كاتيوشا) تسيير أعمال (نتالي) في سفرها لعلاج (سيرغي) وأثبتت جدارتها في إدارة الأعمال، حيث أنَّها و خلال ما يقارب الثلاثة أشهر بعد سفر (نتالي) قد زادت أرباح الشركة بشكلٍ ملحوظٍ، مما دعى (قنسطنطين) للإعجاب بها أكثر، وكان يلازمها كل الوقت بحكم

أنه شريك مع (نتالي) في هذه الشركة، فلذلك كثرت المناسبات التي تجمعهما مع بعضهما، لأن ساعات العمل في الشركة تضاعفت، وكانت (نتالي) و(قنسطنطين) مُنشغلين جداً، لدرجة أن (كاتيوشا) لم يَعُد يسعها الوقت حتى لتكتب رسالة لحبيبها (أنطون)، فكانت كل الوقت تقريباً بصحبة (قنسطنطين).

الفصل الواحد و العشرون:

في تلك الأيام كانت (نتالي) تعيش مرحلةً صعبةً جداً، و كانت دائمة الشكوى لـ(كاتيوشا)، فـ(سيرغي) حالته متأزمة جداً، ويبدوا وكأنه قد فقد الذاكرة، ولا يوجد في رأسه سوى شيء واحد، وهو أنه يريد أن ينبش القبور ليبحث عن حبيبهُ الذي تاه منه، و قد حوَّلهُ الأطباء إلى المصح النفسي، و وضعوا عليه حراسة خوفاً من أن يهرب، في بداية الأمر رجحوا أنه قد أصابه انفصامٌ للشخصية، ولكنهم وبعد عدد من الفحوصات تبيَّنَ لهم أنه مصابٌ بمرضٍ خطيرٍ جداً قلّ ما يُصيب البشر في العصر الحديث، و لكنه كان مُنتشراً في العصور الوسطى، وهو عبارة عن باكتيريا تعيش في الخلايا الدِّماغية وتتكاثر وتتأزم مع مرور الأيام، فقررت (نتالي) أن تبحث عن عِلاجٍ لـ(سيرغي) خارج روسيا، و بالتحديد في لندن، و التي كانت تجمع كفاءات علمية مرموقة من حول العالم، و يوجد في مشافيها أحدث التقنيات و التجهيزات الطبية.

أكد الأطباء أنَّ هُناكَ أمل في الشفاء، ولكنهم أرادوا أن يعلموا تاريخ بداية هذا المرض، لأن التحاليل أثبتت أنه مرض مُزمن، لذلك طلبوا ملف (سيرغي) الصحي منذ ولادته، لِعلمهم أنه في روسيا عادة جيدة وهي أن كل شخص منذ ولادته يكون له ملفٌّ صحي يوضع في المشفى أو العيادة أو عند أحد الأطباء، وذلك الملف يُسجل فيه كل ما يصادف الشخص من أمراض ووعكات صحية حتى ولو كانت بسيطة، ويبقى هذا الملف يرافقه حتى تاريخ وفاته، وهذا الملف هو الذي كان يبحث عنه الطبيب الذي كان يُشرِفُ على مرض (سيرغي) في لندن، و هذا الطبيب كان روسياً مُقيماً في لندن ومن خبرته كان يعرف أنه هناك ملف يستطيعون من خلاله معرفة حالة المريض من بدايتها حتى الوقت الراهن.

إن ظاهرة الأطباء الروس في الخارج قد أصبحت ظاهرة طبيعية و مُنتشرة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وبعد الفقر الذي سيطرَ على البلاد، مِما جعل الهجرة منها كثيرةً جداً، وخصوصاً لأصحاب الشهادات العُليا، لأنهم كانوا من أوائل الأشخاص المقبولين للهجرة في الدول

المتقدمة، وكان ذلك مُخططاً من هذهِ الدول لسلب روسيا الثروة العلمية التي صنعها الاتحاد السوفييتي، فبينما كان الغرب منغمساً في جمع الأموال وصراع الإنسان في مجتمعٍ تنهشهُ مطامع و مصالح الرأسماليين، كانت مؤسسات الاتحاد السوفييتي مشغولة بتنفيذ الثورة الثقافية و العلمية التي وضع أسسها قائد الثورة الاشتراكية لينين، فالطبقة المثقفة السابقة الموجودة في المجتمع الروسي و المكونة أساساً من عائلات النبلاء و الضباط و رجال الكنيسة و أولاد الطبقة البرجوازية، قد اندثرت تقريباً بفعل الثورة، فبعد إعدام القيصر هاجر الكثير منهم إلى الخارج، وأُعدم الكثيرون بتهمةِ معاداتهم للثورة، وانتزعت كل ممتلكاتهم لتصبح ملك الشعب، فكان ما ورثه لينين عبارة عن شعبٍ تسيطرُ على أغلبيته الأُميَّة، أكثريته الساحقة لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وظيفتهم في المجتمع عمال و فلاحين و خدم لطبقة لا تتجاوز 5٪ من الشعب، و لكنها تملك ما يقارب 90٪ من ثروات روسيا القيصرية، لذا كان على الثورة أن تثقف هذا الشَّعب ليتعلم كيف يكسب لقمة عيشه، ويدافع عنها في وجه

مُستغليه، و لاحقاً هذا ما حدث، فأصبحت أي مهنةٍ في هذا البلد حتى ولو كانت عامل تنظيفات بحاجةٍ إلى أن يدرس الشَّخص في معهدٍ متوسطٍ على الأقل، ليصبح هذا البلد في خلال ستة عقودٍ أغنى بلد في العالم من الناحية الثقافية، بعدما كان منغمساً في جهله وفقره، و أصبح في كل بيت هناك من يحمل شهادات عليا في اختصاص ما، ولا يوجد في هذا الشَّعب من هُم لا يحملون شهادات دراسية، حيثُ امتلأت المدن والبلدات بمعاهد العلم والفن والموسيقى، وباستطاعة كل شخص أن يصقل مواهبه بعد الدراسة، و كان كل هذا بالمجان، حتى أنه كان يؤمَّنُ للطالب السكن والمختبرات المجانية، وكان يُخصص لهُ راتب يستطيع من خلاله على الأقل أن لا يحتاج أحد خلال مدة دراسته، هكذا بنى السوفييت ثورتهم الثقافية التي ولدت محيطاً من العباقرة نالوا اعترافاً واسعاً في كل العالم، وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي سعى الغرب للاستفادة من عقولهم واختصاصاتهم.

ومن هذه الكفاءات كان الطبيب الذي قابلته (نتالي)، كان هذا الطبيب يدعى (يوري) و هو الذي أخذ يشرف

على حالة (سيرغي)، إن الشَّعب الروسي من السَّهلِ أن يتوحد ويجتمع في الغربة، و من الأمور الطبيعية جداً أنه عندما تجد شخصاً يتكلم الروسية في بلد غريب، من اللحظة الأولى يُشعرك وكأنك في بيتك ويُشعرك وكأنك تعرفه منذ قرون، فقط لأنَّكَ تذكره ببلده الأم، أما اللغة الروسية التي يتكلمها هذا الشعب في غربته، فتبقى في عروقه حتى موته و تتوارثها الأجيال، حيث قابلت (نتالي) صديقاً لها هاجر جَدُّ عائلتهِ الأكبر في سنة 1916 إلى إنكلترا ، وأسس معملاً للنسيج، ولكن هذه الأسرة ظلت عبر ثلاثة أجيال تتكلم اللغة الروسية، و كان هذا الصديق لـ(نتالي) طبيباً و صاحب مشفى ضخم في مركز لندن، فأدخلت (سيرغي) فيه للعلاج.

تشكل فريق من الأطباء المشرفين على حالة (سيرغي) في هذا المشفى و ضمَّ عدداً من الاختصاصات، وقد أجمعوا كلهم أن (سيرغي) يعاني من مرضٍ نفسيٍّ، إلا أنَّ نَقل (سيرغي) إلى مشفى الأمراض النفسية كان ممنوعاً لدى الدولة التي يعالج بها (سيرغي)، ولكن مجموعة الأطباء الروس و البريطانيين المشرفين على حالة (سيرغي) وعلى

رأسهم الطبيب صاحب المشفى أقنعوا المسؤول عن مشفى الأمراض النفسية أن يقيم (سيرغي) بها مُدَّةَ علاجهِ، ولكن كانت العقبة أن قانون هذه المستشفيات في حال قبول المريض بها لا يسمح له الخروج منها إلا إذا تَمَّ شفاؤه بشكلٍ كاملٍ، لأنه يُشكل دون ذلك خطراً على المجتمع، وعلى هذا أمضت (نتالي) الأوراق المطلوبة مع أنها كانت خائفة من عدم خروج (سيرغي)، ولكن كان أملها بشفائه أكبر من خوفها من إدخاله المشفى، إن (نتالي) لم تكن تعلم هل ما فعلته صحيح أم أنه سيكون خطراً على (سيرغي)، لأن ما ينتظره في هذه المشفى قد يكون فيه عذاب أليم، حيث أنه من الممكن أن يتعرض لصدماتٍ كهربائيةٍ أو لجرعاتٍ دماغيةٍ، ومن الممكن أن يكون الثمن أن يفقد حياتهُ، ولكن الأمل الذي أخذته (نتالي) من الأطباء الروس جعلها تُغامر، وخصوصاً بعد حضور والدها الذي اتصلت به وأخبرته بمشكلتها، فكان له الدور الأكبر في أقناعها على بقاء (سيرغي) في المستشفى وإقناعها بأنهُ سيبقى معها يراقب حالته الصحية وأنهُ مقتنعٌ تماماً من شفائه.

الفصل الثاني و العشرون:

بعدما وضعت (سيرغي) في المستشفى، اتصلت (نتالي) بـ(غريغوري) وهي تبكي ولا يكاد الكلام يخرج من فمها وقالت له:

-يا (غريغوري) أرجوك يجب علينا أن نجد سائق (سيرغي)، ونعرف منه ما هو العلاج الذي كان يتلقاه (سيرغي) فهو الآن في العناية المشددة وحالته حرجة جداً.

وبعد عناء كبير ومتابعة من قبل (غريغوري) للموضوع وأسئلة كثيرة واستفسارات على مدى عشرة أيام، علم أن سائق (سيرغي) سيصل على متن الطائرة القادمة من (نوفاسيبيرسك) في يوم السبت في تمام الساعة الثامنة صباحاً، فاتجه بسرعةٍ إلى (كاتيوشا) ليخبرها بالموضوع والتي كادت السَّعادة تغمرها عند سماعها لهذا الخبر.

فقالت له:

-جيد جداً يا (غريغوري) إذاً سأخبر (نتالي)، فهذا الخبر لربما سيسعدها و لو قليلاً، حاول أن تراقب عودة سائق (سيرغي) حتى لا نخسر من الوقت ولا دقيقة واحدة، فربما

كان لدى هذا السائق وسيلة ما تساهم في شفاء (سيرغي).
ثم طلبت (كاتيوشا) من (غريغوري) أن يقوم بتوصيلها إلى بيتها، لأنها كانت تريد أن تذهب لتحضر إيجار بيتها، و الذي أجَّرتهُ لإحدى العائلات بغرض أن تجمع البعض من المال، لكي تشتري به سيارة لزوجها (أنطون) حتى يعيشا من مدخولها بعد عودته.
استغرب (غريغوري) و قال لها:
-ولماذا السيارة؟ هل تفكرين في أن تتركي العمل معنا؟
فقالت (كاتيوشا):
-أنا لا أفكر في ذلك، ولكنني أخاف أن لا يوافق زوجي على عملي الراهن بعد عودته، لأنَّ لديهِ غيرة إلى حدٍّ كبير عليَّ، وبالنسبة لي يا عم (غريغوري) فأنا لا أخالف (أنطون) بأيِّ شيءٍ يريده، فهو بالنسبة لي كُلَّ شيءٍ في هذه الدنيا، فها أنا الآن أعمل في مكتبٍ فخم وأسكن في قصرٍ جميلٍ، ولكنني من دون (أنطون) أشعر أنني أقف على تراب الصحراء الساخنة، أموت عطشاً بانتظار الماء، وأنا لن يروي ظمئي وعطشي سوى رؤيتي لحبيبي (أنطون).
وحين وصلا إلى المنزل على الفور توجهت (كاتيوشا) إلى

صندوق البريد وأخذت منه كميةً لا تقلُّ عن العشرة رسائل جميعها من زوجها، أخذت هذه الرسائل ومن ثم استلمت نقود الإيجار، ثم جلست بجانب (غريغوري) في السيارة وقالت:

-يا عم (غريغوري) كل هذه الرسائل من (أنطون) و أنا لم تسنح لي فرصة أن أقرئها لشدَّةِ انشغالي بالعمل، كما أن من بين هذه الرسائل هناك رسائل يبعث فيها لي بالتهاني في عيد ميلادي، فأنا منذ شهر أصبحتُ في العشرين من عمري.

فقال لها (غريغوري):

-كيف هذا؟ لما لم تخبرينا بموعد عيد ميلادك، وكيف يمضي هذا اليوم من دون أن نحتفل في اكتمال العشرية الثانية من عمرك؟

فقالت:

-كيف يا عم (غريغوري) أحتفل في يوم ميلادي و(نتالي) بعيدة عنا مع (سيرغي) ولا نعلم ماذا تكون نهاية رحلتهما، فأنا لن تدخل الفرحة روحي إلا بعد عودة زوجي، والاطمئنان على (نتالي) وزوجها الطبيب (سيرغي).

بعد سماعه لهذا الكلام الطيب منها زادت مكانة (كاتيوشا) في قلب (غريغوري)، بعدها توجها إلى المكتب مرة أخرى، وفي طريقهما توقفا قليلاً بجانب البنك، وبعدها ذهبا إلى المحاسب العام للشركة، فكانت (كاتيوشا) تقوم بعملها بكل إخلاص، و هكذا لم تكن تدع الوقت يمر دون عمل، حتى رسائل زوجها (أنطون) كانت تقرأها وهي في الطريق، فأحياناً تبتسم وأحيانا ترى في عينها الدمعة.

ومن ثم طلبت من (غريغوري) قلماً وورقة لكي تكتب رسالة لزوجها، ريثما تنتهي زحمة السير المربكة في شوارع مركز المدينة الذي كانوا يقطعونه.

أخذت تكتب رسالتها لحبيبها وكأنها كانت تعيش مع كلمات الرسالة في تلك اللحظات، فلم تكن تشعر بذلك الجو الحارق ولا بزحمة وأصوات السيارات، فكان كل ما يشغلها هو كتابة الرسالة، فقد شعرت أنها قد تكون مُقصِّرة في حق (أنطون) في الفترة الأخيرة حيث أنها لم تكن تبعث له الرسائل لكثرة ما كانت منشغلة في عملها.

انتهت من كتابة الرسالة وقالت:

-يا عم (غريغوري) لو سمحت أريد أن أنزل في هذا المكان، حيث يوجد بريد قريب من هنا، أرغب أن أضع الرسالة فيه لتصل لـ(أنطون) بأسرع وقت ممكن.

فقال لها (غريغوري) مبتسماً:

-وهل تعرفين أين يوجد البريد في هذه المدينة الكبيرة ؟!

فقالت ضاحكةً:

-إن بعد (أنطون) عني جعلني أعلم أين توجد أبنية البريد في المدينة كلها، كنت في بعض الأحيان في أوائل غيبته أكتب له أربع أو خمس رسائل في اليوم الواحد.

-وهل كنتِ تجدين ما تكتبينه ؟

-لو بقيت كل الزمن أكتب له لا يكفيني ما أكتب وأُعبِّر له عن مدى حُبي له.

عند انتهاء مهامهما دخلت (كاتيوشا) المكتب وبقي (غريغوري) في السيارة، فرأى (قنسطنطين) يدخل وهو يحمل بيده باقةً من الزهور، فقد اعتاد (قنسطنطين) منذ أن بدأت (كاتيوشا) العمل مع (نتالي) أن يهديها الزهور كل يوم.

قدم لها الزهور ومن ثم سألها عن أحوالها.

فقالت له:

-اليوم تكلمت مع (نتالي) وأخبرتني عن وضع (سيرغي) وكانت تبكي.

فقال (قنسطنطين):

- نعم وأنا تكلمت معها اليوم، وأخبرتني أيضاً عن وضعه، وأنا جداً قلق عليه.

- لا أدري يا (قنسطنطين) فمنذ أن رحلت خالتي عن هذه الدنيا وكأنه حلت فوق رؤوسنا غيمة سوداء، وكل يوم نعيش مأساة جديدة، فمنذ أن ذهبت معك إلى المشفى يوم وفاة خالتي، وأنا قلبي يرتجف إلى هذا اليوم.

أخذت (كاتيوشا) الزهور وذهبت لتضعها في المزهرية كالعادة، ولكن هذه المرة تبعها (قنسطنطين) من خلفها وكان يحمل بيده علبة حمراء جميلة يوجد بداخلها خاتم من الماس وقال لها:

-أرجو أن تقبلي مني هذه الهدية يا (كاتيوشا)

ولكن (كاتيوشا) رفضت قبول الهدية قائلة:

-ليس هناك مُناسبة لهكذا هدية يا (قنسطنطين) حتى

أقبلها منك.

ولكنه أَصرَّ على أن تقبلها فقال لها:

-اعتبريها عربون صداقة ومحبة، وإنني قد تخيلتُ هذا الخاتم كم سيكون جميلاً في إصبعكِ، وأرجو أن لا تردي هذه الهدية.

ظل (قنسطنطين) يلحُّ عليها في الكلام حتى وافقت على قبول الهدية، أخذت (كاتيوشا) منه الهدية وقالت له:

-كل الشكر لك يا (قنسطنطين) ولكن أرجوك ألا تحرجني في المرات القادمة في قبول الهدايا، فأنا لم أعتد أن أقبل هدايا سوى من زوجي، وأنا مُصرَّة أن لا أقبل هدية من رجل آخر غير حبيبي (أنطون).

سمع (قنسطنطين) هذه الكلمات، وبدا الإرتباك على وجهه، لأنه من الملاحظ أن اهتمامه بـ(كاتيوشا) اهتمام من نوع محدد، كما أن (كاتيوشا) لاحظت ذلك، ولذا تبقى دائماً تتكلم عن زوجها (أنطون) في سياق الحديث بينهما، كي تشعره بطريقة أو بأخرى أنه من المستحيل أن تفكر بغير زوجها.

فكانت (كاتيوشا) تعي تماماً نوايا (قنسطنطين)،

ولكنها لا تريد أن تخسره كصديق وكشريك لـ(نتالي) و التي عاهدتها (كاتيوشا) على الوفاء.

إن خالتها المرحومة كانت باستمرار تقول لها العبارات و الأمثال التي كانت تحذرها فيها من مكر الرجال، حيث كانت تقول لها أن الرجال كثيراً ما يستخدمون الخداع والمكر ليملكوا النساء، صحيح أنه لا يوجد امرأة لا تحب أن تحلو في عيون الرجال، ولكن الامرأة تختار من الرجال من يرشدها قلبها إليه، ولكن الرجل يختار من النساء ما تشده غريزته إليها.

لذلك كانت (كاتيوشا) تدرك تماماً مدى حبها لـ(أنطون) الذي اختاره قلبها، وأن دهاء الرجال كلهم لن يبعدها عن طريقه مهما كانت المغريات.

ولكنها كانت تتسائل: هل يستطيع المرء أن يرسم طريقه بنفسه، أم أن القدر في بعض الأحيان يخبئ في مكنوناته ما لا نحب؟ وما لا نستطيع منعه؟

لكنها كانت تقول لنفسها: إن عشقي لـ(أنطون) هو غريزة البقاء، زرعت في مشاعري، ولن يستطيع أياً كان أن ينتزعها مني.

إن (قنسطنطين) كان رجلاً مُخضرماً، علَّمتهُ السنين أن يكون فيلسوفاً وحكيماً أيضاً إن اقتضت الحاجة، فهو يعلم كيف يعبر من سرير امرأة إلى أحضان امرأة أُخرى، وتعلَّم من تجربته السابقة الصبر عندما سجنت حبيبته، وكيف تحمل منظر أن يسيل دمها أمامه، ثم نسي هذا الألم أو أنَّهُ تناساه من أجل استمرارية الحياة، لكن مع ذلك فأن قساوة الدنيا لم تزرع في قلبه الرغبة بالانتقام.

وحيث أن (قنسطنطين) هو بالمحصلة شخصٌ طيبٌ وخلوقٌ، ولكن عيناه وتصرفاته بدأت تفضح حبه وإعجابه بـ(كاتيوشا).

في الحقيقة أن سبب الهدية التي قدمها (قنسطنطين) لكاتيوشا كانت بمناسبة عيد ميلادها المصادف في نفس اليوم الذي قَدَّمَ فيه الهدية لها، و رغم أن (كاتيوشا) كانت قد أخبرت (غريغوري) و بقية العاملين، أن عيد ميلادها قد مضت عليه مدة لكي لا تحتفل في غياب (نتالي) و مرض (سيرغي).

لكن (قنسطنطين) كان ذو خبرةٍ وحنكةٍ في هذا الموضوع فقد اتطلع على ثبوتيات (كاتيوشا) عندما قام

بإجراءات الوفاة لخالتها، و لذلك فقد علم بعيد ميلادها و دوَّنهُ في دفتره كما جرت العادة في روسيا، فالشعب الروسي امتاز عن بقية شعوب العالم بهذه الخصوصية، لأن جميع الأصدقاء والأقرباء يكتبون في دفاترهم تاريخ ميلاد بعضهم، لذلك لا تتم دعوات الأصدقاء والأقارب في أعياد الميلاد، لأنهم جميعهم يعرفونها من خلال دفاترهم التي دونوا عليها هذه التواريخ، وكان (قنسطنطين) قد حفظ تاريخ ميلاد كاتيوشا وقام بتهنئتها بهذه المناسبة، لذا بعد أن علمت (كاتيوشا) في نهاية المطاف أن هذه الهدية بمناسبة عيد ميلادها، وقبلت الهدية، تجرأ (قنسطنطين) ودعاها إلى أحد المطاعم الجميلة في المدينة ليحتفل معها في هذه المناسبة.

في بداية الأمر (كاتيوشا) رفضت الدعوى، ولكنها قبلتها بعد إلحاح مُستمر من (قنسطنطين)، لكنها اشترطت أن لا يرافقها إلى المطعم في الطريق، وأن تذهب وحدها، وتلاقيه في المطعم.

في المساء، وبعد انتهاء العمل، وصلت (كاتيوشا) بعد أن ركبت ما يسمى في روسيا (الترومفاي)، وهو وسيلة

موصلات تعمل على الكهرباء، وتشبه في شكلها القطار، ولكن طولها أقصر من القطار بكثير، نزلت على بعد مائة وخمسين متر تقريباً عن موقع المطعم، حيث تقع المحطة الذي يقف فيها (الترومفاي).

دخلت (كاتيوشا) إلى المطعم، فوجدت (قنسطنطين) ينتظرها أمام الباب، كان قد زين المدخل كله بالزهور، و كتب على جدران المدخل بأوراق الزهور عبارة (كل عام وأنتِ بخير يا أيتها الـ(كاتيوشا) الرائعة.

نظرت إليه (كاتيوشا) وقالت:

-شكراً يا (قنسطنطين) فلولا أنني رأيت اسمي مكتوباً على الجدار بأوراق الزهور لما علمت أنا هذا يخصني، ألا يكفيك ما قد أهديتني إياه من الزُّهور اليوم؟! هذا كثير يا (قنسطنطين).

فأجابها (قنسطنطين):

-كل زهور الدنيا تقف أمامك وهي تخجل من وجهك الذي جمع جمال كل زهور الدنيا.

أمسك (قنسطنطين) يدها وقبلها، ثم دخل معها القاعة بهدوء وخطوات بطيئة، كانت تلك الليلة ليلة عادية في

منتصف الأسبوع، فلم يكن في القاعة أشخاص كثيرون، كما وأكثر الطاولات فارغة وغير محجوزة، إلا مكان محدد في زاوية الصالة كانت تحيط به ستائر حريرية يهرب من بين خيوطها أضواءً جميلةً جداً، وكأنَّ شيءً ما خلفها يشتعل.

شعرت (كاتيوشا) أثنائها وكأن (قنسطنطين) يشدها إلى هذه النار، والتي ارتسمت في عينيها وكأنها حريق هائل شب في هذا المطعم.

كان هذا خيالاً قد ارتسم في عيون (كاتيوشا) في هذه اللحظات، قبل أن يفتح (قنسطنطين) الستائر الحريرية، وترى عيونها ما يقارب عدد سنين عمرها من شموع عملاقة على شكل ملائكة صغيرة، تحرس الطاولة التي وضع في وسطها بوكيه كبير من الورد، علق عليه صورة جماعية، يجتمع فيها كل من (قنسطنطين) و(نتالي) و (سيرغي) و(كاتيوشا)، كانت قد أخذت هذه الصورة الجماعية لهم في حفلة عيد ميلاد (قنسطنطين)، كما وكان على الطاولة أيضاً عدة زُجاجات من أنواع الشمبانيا الإيطالية الفاخرة، كتب عليها (عشرون عاماً والأميرة كاتيوشا

تزرع الدنيا زهوراً).

ارتبكت (كاتيوشا) من هذه المفاجئة الرائعة التي هيئها (قنسطنطين)، فجلست على كرسيها وأخذت تنظر للوحة لأحد أشهر الفنانين علقت على الحائط المقابل لكرسيها، حيث رسم فيها الفنان وجه (كاتيوشا) بطريقة رائعة، وكتب في أسفلها مع التمنيات بالحب والسعادة أصدقائك (نتالي) و (سيرغي).

ومن ثم نظرت إلى الحائط الآخر، فرأت شيءً يشبهُ الوسادة قد عُلِّق في وسط الحائط.

فابتسمت وقالت:

-كل شيء فهمته، إلا هذا الشيء الذي يشبه الوسادة و المعلق على الحائط، ما هو؟

فقال (قنسطنطين):

-يا جميلة الجميلات، خذي هذه العصا واضربي على هذه الوسادة، وهي ستخبرك بما فيها.

أمسكت (كاتيوشا) بالعصا وضربت على الوسادة، فتحولت هذه الوسادة بطريقةٍ فنيةٍ رائعةٍ إلى دمية على شكلِ دُبٍّ القطب الأبيض الشَّهير، كُتب عليه (ضميني

إلى صدركِ يا أميرتي كاتيوشا)

صرخت (كاتيوشا) من فرحتها، وكأن هذا الدُّب قد أعجبها أكثر من كل ما كان مُحضراً لها، وضمته إلى صدرها، وأخذت تحاور هذه الدمية وتقول لها:

-ستبقى معي ولن تفارقني بضعة أشهر حتى يعود زوجي فأعانقكما معاً.

حينها وضع (قنسطنطين) يده على كتفها وقال:

-هذا يعني أن أخرج أنا، بما أنك قد استبدلتيني بهذا الدُّب الصغير.

ضحكت (كاتيوشا) و اعتبرت كلامه من باب الطرفة، ثم دخل النادل ووضع الكافيار في الصحون وسكب الشمبانيا، رفع (قنسطنطين) كأسه و أخذ يقول:

-(كاتيوشا) لا يوجد هناك كلمات توصف ما أريد أن أقوله لك في يوم ميلادك، لذا سأرفع هذا الكأس وليحضر معي صديقي (سيرغي) و زوجته (نتالي) بروحيهما رغم غيابهما بسبب سفرهما الاضطراري، ولنقول بصحة أجمل فتاةٍ على وجه هذه الأرض، و التي اسمها (كاتيوشا).

ردت عليه (كاتيوشا) بعيون مبتسمة وقالت له:

-شكراً جزيلاً، فهذا كثير جداً بالنسبة لي، ولا أعلم كيف سأرده لكم جميعاً، أنت و(نتالي) و (سيرغي) الذي أدعو الرب أن يشفيه في القريب العاجل.

دخل النادل وأخذ يعيد سكب الشمبانيا في الكؤوس حتى أصبحت أغلب الزجاجات فارغة.

فقالت (كاتيوشا) لـ(قنسطنطين):

-يا صديقي لقد شربنا الكثير، هذا يكفي، فأنا أخاف سُكّر الرجال.

فقال لها:

-وتخافين مني أيضاً يا (كاتيوشا).

-لا يا (قنسطنطين) فأنا معك أشعر بالأمان، فأنت من الأشخاص الذين أثق بهم جداً.

-لا يا (كاتيوشا)، فأنا دائماً أشعر أنك تخافين مني وهذا الشيء يزعجني كثيراً.

لم تكن ترغب (كاتيوشا) الخوض في هذا الحديث وتفاصيله، لأنها ما زالت تعاند القدر الذي وضع (قنسطنطين) في طريقها، ولا تدع لـ(قنسطنطين) فرصة

حتى يكلمها في مواضيع خاصة، لأنها بدأت تفهم مراده وأصبحت تميل إليه بعض الشيء.

لذا قالت له:

-دعنا من هذا الحديث يا (قنسطنطين)، ولنشرب هذا الكأس بصحة (نتالي) و (سيرغي)، هذين الأثنين الرائعين، و لندعو الرَّب أن يشفي صديقنا (سيرغي) ويعيده لنا سالماً.

وقف (قنسطنطين) وهو يرفع الكأس، وهذا يعني احترامه ومحبته للشخص الذي يشرب بصحته حسب عادة الشعب الروسي.

بعد ذلك أُطفئت أنوار القاعة، وبدأت الأنوار تتراقص، وفتحت الستائر، ليظهر من خلفها مطربٌ مع فرقته، وبدأ يغني أغنية وكأن كلماتها كتبت من أجل (كاتيوشا) حيث بدأت الأغنية بكلمات (كاتيوشا) اليوم بنت العشرين، كانت المفاجئة أن كل الحاضرين الذين وجدوا على الطاولات، وكانت (كاتيوشا) تظنهم زبائن، فإذ بهم في الواقع أعضاء في فرقة للرقص، بدأ أعضاء الفرقة

يؤدون رقصة الـ(بيلي تانيتس)[6].

وكانت هذه المفاجئة الثالثة في هذه الليلة لـ(كاتيوشا) حيث تحوَّلَ المطعم وكأنه مسرح، والحضور كانا فقط (كاتيوشا) و (قنسطنطين).

ثم تقدَّمَ أحد أعضاء الفرقة من (كاتيوشا) ودعاها للرقص، حيث أمسك بيدها وبدأ يراقصها على أنغام الأغنيات الرومانسية.

وبعدها بدأ أعضاء الفرقة ينسحبون بطريقة تدريجية و هادئة لترى (كاتيوشا)، نفسها مع (قنسطنطين) على خشبة المسرح يرقصان وحدهما على نغمات موسيقية هادئة جعلت حالتهما بها الكثير من الرومانسية.

حينها لم يبقَ أحد في القاعة، فكل الموجودين انسحبوا وبقيت (كاتيوشا) والتي كانت تضع يدها على كتف (قنسطنطين)، وهو يلف يده على خصرها، يرقصان بهدوء، حينها بدأ الخوف يتسرب إلى (كاتيوشا) التي كانت تنظر إلى القاعة التي لم يبقَ فيها أحد سواها و

---

[6] تعني حرفياً الرقصة البيضاء و فيها تقوم المرأة باختيار الرجل الذي ترغب بان يرافقها في الرقص (الناشر).

(قنسطنطين).

وبدأت تتخيل أنه لم يبقَ سوى أن تنطفئ الأضواء القليلة المتبقية، ويتسلط ضوء زَهري على فراش (قنسطنطين) الذي قد تقع بين يديه، وبدأت تفكر كيف ستجد طريقة للهرب في هذه اللحظة، لولا أنه مرة أخرى أُنيرت الأضواء من جديد، فرأت كل عمال المطعم وحتى الطباخين الذين كانوا يرتدون لباسهم الأبيض، وأعضاء الفرقة كلهم مجتمعين، ويتقدَّمهم كلبٌ صغير، يجرُّ عربة تحمل على متنها قالب حلوى رسمت عليه صورة (كاتيوشا) والشموع تصنع ما يشِّبه السياج حول تلك العربة المزينة بأجمل أنواع الزهور .

سكتَ الجميع ومرةً أخرى بينما كانت (كاتيوشا) تنظر للحضور وعيونها تبكي من الفرحة والمفاجئة، انطفئت الأنوار مرة أخرى، وتقدم من (كاتيوشا) فتاتان جميلتان شبه عاريتين، أمسكتا بيدي كاتيوشا من اليسار واليمين، ليتقدم من الخلف شابٌ وسيمٌ له عضلات مفتولة و ذي بنيةٍ ضخمةٍ، فحملها بين يديه وتوجه بها إلى العربة التي تحمل قالب حلوة العيد، فأوقفها أمامها وأطفئت

شموعها العشرين بهواء أنفاسها الرقيقة، ومرة أخرى اشتعلت الأضواء بعد إطفاء الشموع، لتتحول القاعة إلى مسرح يملئه الحضور الذين كانوا يصفقون بحرارة، و بعدها ظلوا طوال الليل يحتفلون بعيد ميلاد (كاتيوشا)، يرقصون ويشربون الخمرة التي جرت كالنهر على شفاه كل الحاضرين بما فيهم (قنسطنطين) و (كاتيوشا)، حتى أنها شعرت بأنها ستستسلم لأحضان (قنسطنطين) لولا أن جائها في تلك اللحظات الملاك المنقذ، و الذي كان عبارة عن (غريغوري) حيث تلقى اتصالاً من سيدته (نتالي) أعلمته فيه بأن هذا اليوم هو عيد ميلاد (كاتيوشا)، و قد علمت (نتالي) من (قنسطنطين) أنه يقيم لها حفل عيد ميلاد في أحد المطاعم، فأمرت (غريغوري) أن يذهب ويحضرها إلى البيت قبل أن تفتك الخمرة برشدها وهي مع (قنسطنطين).

تقدم (غريغوري) من (كاتيوشا)، وقدم لها التهاني في عيدها ثم قال لها:

-هيا يا (كاتيوشا) فقد آن الأوان لكي تذهبي إلى البيت، فما هي سوى ساعاتٍ قليلةٍ ويبدأ عملك في يوم

جديد.

ابتسمت (كاتيوشا) ابتسامةً تُسيطر عليها الخمرة، و بعيون لا ترى سوى نصف الحقيقة،ثم قالت:

-حاضر سيدي.

ثم تقدمت من (قنسطنطين) وقبَّلتهُ وهي تقول له:

-شكراً لك يا (قنسطنطين) كانت حفلة رائعة لم أتوقعها بهذا الحجم من السعادة، فأنت رجل ولا كل الرجال في طيبتك وروعتك، وتصبح على خير، وأدعو الرَّب أن يقدرني على رد هذا الجميل وهذه المناسبة الرائعة.

جلست (كاتيوشا) إلى جانب (غريغوري) على مقعد السيارة ونامت على الفور، ومضى (غريغوري) بها إلى البيت ثم حملها إلى سريرها، بعد أن وضعها في السَّرير و قام بإلقاءٍ لحافٍ عليها، تنهد و قال بصوتٍ خافتٍ:

-كم أنا خائفٌ عليكِ يا (كاتيوشا).

كان يظن أنها لا تسمعه، ولكنها سرعان ما فتحت عينيها وقالت له:

- لا تخف عليَّ يا عم (غريغوري)، إن اللّٰه يحمي من هم يخافونه.

الفصل الثالث و العشرين:

في الصَّباح الباكر بعد عدة أيامٍ، و بينما (توتا غوليا) تقدم القهوة الصباحية، دخل (غريغوري) بسرعة إلى (كاتيوشا) وقال لها:

-(كاتيوشا) لقد وصل سائق (سيرغي) ومعه شخص عجوز، وهما الآن ينتظران في المكتب.

قفزت (كاتيوشا) من مكانها عند سماعها هذا الخبر، فاغتسلت بعجالةٍ، وأسرعت إلى المكتب بسرعةِ البرق وهي لا تزال ترتدي بذتها الرياضية التي تلبسها قبل النوم وقبل دخول المكتب، رأت (قنسطنطين) واقفاً أمام باب المكتب وكأنه ينتظرها، وقبل أن تحييه سبقها يقول لها:

-ما هذا الجمال، لم يسبق لي وأن رأيتُكِ في البزَّةِ الرياضية، والرَّب سيصيبني انهيارٌ عصبي كُلما نظرتُ إلى جمالك.

لم تكترث (كاتيوشا) لكلامه المعسول، وأكملت حديثها معه قائلة:

-يا (قنسطنطين) لقد أخبرني (غريغوري) أن سائق

(سيرغي) قد وصل، ومعه رجل عجوز، أرجوك ادخل وتكلم معهما ريثما أُبدِّل ثيابي.

دخل (قنسطنطين) و ألقى التحية على الحاضرين وقال:

-يا (غريغوري) أرجوك أخبر الطباخة أن تُحضِّرَ الفطور للضيوف.

تقدَّمَ العجوز الذي بصحبة سائق (سيرغي) من قنسطنطين وقال له:

-أين ولدي ؟

فأجابه (قنسطنطين) والدَّهشةُ تبدو عليه:

-ومن ولدك يا سيدي ؟

نظر السائق إلى (قنسطنطين) وقال له:

-هو يقصد (سيرغي) يا سيد (قنسطنطين)

ثم نظر العجوز إلى سائق (سيرغي) وقال له:

-لو سمحت أن تنتظر في الخارج ريثما أنهي حديثي.

خرج سائق (سيرغي) و (غريغوري) معه، وبقي (قنسطنطين) والعجوز وحدهما في المكتب.

نظر (غريغوري) إلى السائق وقال له:

-عفواً يا سيد، فنحن منذ مُدَّةٍ نلتقي بعضنا، وأراك

طوال الوقت صامتاً، فأرجوك أخبرني ما الذي يجري؟

-قبل الكلام أخبرني كيف حال (سيرغي) الصحي؟

-لا يُطمئن، فهو كل يوم من سيء لأسوء.

-هناك بحرٌ من الأسرار في صدر (سيرغي)، وقريباً جداً سيعرفها الجميع، وأدعو الرب أن لا نخسرهُ، فـ(سيرغي) جديرٌ بكل الحب والاحترام.

عندما تكلم السائق عن (سيرغي) لمعت الدمعة في عينيه، لكن (كاتيوشا) والتي كانت قد قدمت لتوها، بدأت توجه لهُ كلمات العتب على تركه (سيرغي) في ظروفه الصعبة، مما جعله يحبس الدموع في داخل عينيه.

أخذت تقول له:

-أين كُنتَ كُلَّ هذه المدة وحالة (سيرغي) كل يوم تزداد سوءاً؟

فلم يكن من سائق (سيرغي) للردِّ على سؤال (كاتيوشا) سوى أنه هزَّ برأسه للأعلى والأسفل.

دعت (كاتيوشا) ومعها (تيوتا غوليا) مسؤولة الطعام الجميع لوجبة الفطور، جلس الجميع على مائدة الفطور، و لكنَ الجميع لم يكونوا على عادتهم، حتى بمن فيهم

(قنسطنطين) والذي كان يملئ وجهه البؤس واليأس.
نظر (قنسطنطين) إلى (كاتيوشا) وقال لها:
-(كاتيوشا) أنا سأحضِّر الأمور من أجل الحصول على فيزا لسائق (سيرغي) والعجوز، وسأحاول أن أسافر معهما، فأنا لم أعد أحتمل أن أترك (سيرغي) في مرضهِ وحده .
فردت (كاتيوشا):
-كان اللّه معكم ولكن أخبروني ماذا يجري ؟
-لن أقول شيئاً، سوى أنَّهُ يجب علينا أن نسافر إلى لندن بأقصى سرعة.
جلس الجميع إلى المائدة ولكن دون أن يأكلوا من المائدة سوى بضع لُقيمات، أمسكت (كاتيوشا) بيد (قنسطنطين) وقالت له:
-أرجوك تكلم، ما الذي يجري؟ هل (سيرغي) في خطر؟ هل حدث له مكروه لا سمح اللّه؟
فتنهد (قنسطنطين):
-تنتظرنا يا كاتيوشا أيام صعبة، ولكنَّ الأملَ لا يموت فما علينا سوى الصلاة والدعاء للرب من أجل شفائهِ

منذ أن دخل (قنسطنطين) وذلك العجوز إلى غرفة المكتب ولا أحد يعلم ما الحديث الذي دار بينهما، ولكن هذا الحديث جعل القلوب ترتجف، والكل يبدو عليه الارتباك والحزن، وكأن الجميع أصبح في البيت في حالة من التشاؤم.

هل يا ترى الغُراب هو نذير الشؤم الذي قد حلَّ بهذه المجموعة المتحابة من البشر؟ ولا أحد يعلم ماذا ستخبئ الأيام القادمة لهم؟

هل هذا كُلَّهُ ما كان يحذر منه الحلم الذي رأته (نتالي) عن الغراب، ولكن أوليس غريباً أن نعتبر أن الغراب مخلوق نذير شؤم؟! فكل مصيبته أنَّهُ خُلق أسود اللون، و قد أثبت العلم أن الغراب من أذكى المخلوقات على وجه الأرض، وأنه المخلوق الوحيد بعد الإنسان الذي لديه محكمة لعقاب المذنب، فالغربان تعاقب الغراب الذي يأكل طعام الصِّغار في العش، بنتفِ ريشهِ حتى يشعر بالصغار التي أكل طعامها، كما و تجتمع الغربان وتقتل الغراب الذي يقتل رفيقهُ حتى يكون عبرةً لغيرهِ، وأيضاً تقول الدراسات أن الغراب وهو صغير يخلق أبيض اللون

لدرجة أن أباه وأمه ينكرانه ولا يتعرفان عليه، فيبعث له الخالق دودة تخلق على منقاره حتى يقتات بها، فلو كان الغراب نذير شؤم لما تمتع بهذه الصفات.

بعد هذه الأحداث خاطبت (كاتيوشا) (غريغوري):

-ما رأيك يا عم (غريغوري) في أن نذهب اليوم إلى الكنيسة، نشعل شمعة ونقيم الصلاة من أجل (نتالي) و (سيرغي).

وافق (غريغوري) على الفور، وانطلقا إلى الكنيسة التي أصبح (غريغوري) معتاداً على زيارتها.

الفصل الرابع و العشرون:

تمكنت (كاتيوشا) من أن تأخذ إجازة قصيرة من عملها بعد أن سافر (قنسطنطين) و الرجلان الأخران إلى لندن، قضت (كاتيوشا) إجازتها مع أمها و مع أهالي قريتها الذين احتفلوا بقدومها أجمل احتفال، لكن الجميع لاحظوا أن (كاتيوشا) ليست تلك الطفلة التي يعرفها الجميع، وأنها أصبحت اليوم امرأةً تحملُ هموم الدنيا على ظهرها، و لم يعد لها ذلك الصوت الصباحي الملائكي الذي يدوي في آذان الجميع في كلماته العطرة التي تحمل الحبَّ لكل الكائنات.

جاء أهالي القرية إلى بيتها وأخذوا يطلبون منها أن تبقى في القرية، وأن لا تعود الى المدينة التي غيرت (كاتيوشا) واستبدلت بسمتها بالهموم التي تلازم تعابير وجهها الضحوك.

ولكن (كاتيوشا) أصرَّت على العودة إلى المدينة، واعتذرت من أصدقائها بالقرية وقالت لهم:

-إن مديرة الشركة التي أعمل بها مسافرة، وعليَّ أن أقوم بالعمل عوضاً عنها.

قضت كاتيوشا إجازتها وعادت الى المدينة، وقبل أي شيء ذهبت إلى بيت (أنطون) حتى تتفقد صندوق البريد ماذا به من رسائل، عندما فتحته وجدت أن الرسائل قد تجمعت بعدد كبير، وكأن (أنطون) لم يكن يفعل شيء سوى كتابة الرسائل لها.

أخذت (كاتيوشا) تتفقد الرسائل وتقرأ عناوينها، فوجدت واحدة من هذه الرسائل لا تحمل عنوان (أنطون)، فوضعتها جانباً ولم تهتم بها.

قرأت (كاتيوشا) كل رسائل (أنطون) وكان هناك رسالةً أودعتها في مذكراتها من شدَّةِ إعجابها بها، حيث كتب بها (أنطون) بعض المقاطع الشعرية التي اقتطعها من الشاعر المبدع (يسينين) و يقول فيها:

يا أيتها الريح الثلجية

أزيحي من طريقي أيامي الذاوية

أودُّ أن أموت مصغياً لصغير الرعيان

من أجلي وأجل الأخرين

والثلوج المنهمرة مساءً تملأ مسامعي
برنين أجراس كوكبية
يا لفتنة هذه الترنيمة الصافية
وهي تغرق الأسى في الزوبعة الثلجية
أودُّ أن أقف مثل شجرة
بقدم واحدة على الطريق
أودُّ أن أعانق الشجرة الجارة
وفي مسامعي شخير النخيل
فارفعي يا أكف القمر كآبتي
تواً متدرعةً إلى أعاليكِ.

كانت هذه كلمات رسالته التي وضع توقيعه عليها وكتب تحتها حبيب متيم قتلتهُ الغربة.

تعجبت (كاتيوشا) بعض الشيء لما كتبه في هذه الرسالة، لكنها كانت معتادةً أنه كان يكتب لها كل يوم ،فقط من أجل أن يكتب لها، ولا يهمهُ ماذا يكتب وماذا تعني الكلمات.

ثم فتحت (كاتيوشا) الرسالة الأخيرة التي اختلفت عن كل الرسائل بعنوان المرسل، واسمهِ، وكلماتها التي

هبطت على أسطر هذه الرسالة، فبدأت (كاتيوشا) بقرائتها:

(كاتيوشا)، قبل عشرة دقائق خرجت من غرفتي حيث لم أعرف طعم النوم طوال الليل، فهناك صراع داخلي بين قلبي وعقلي، ولا أعلم من المهزوم منهما في النهاية، فكلاهما يتصارعان على شيءٍ واحدٍ، ولكن رؤيتي لكِ في تلك الليلة عندما دخلتِ إلى غرفتي ليلاً، جعلت قلبي يغضب من عقلي ويقول لهُ: يجب أن تنصاع لأوامري، فأنا منذ اللحظة مُنشقٌّ عن أوامرك، فأنت من وضعت في طريقي من هي تُحرِّكُ أحاسيسي ومشاعري وتتحكم بها رغماً عني، إن إيماني بتصرفاتك والمنطق الذي تفكر فيه أجبرني أن أُمسك القلم بين أصابعي، فأزهر الأقحوان على أوراقي ليكتب كل ما يدور في هواجسي.

(كاتيوشا): اعتبري كلماتي التي ستقرئينها عبارة عن رسالة صديق يريد استشارةً من صديقته على ما يدور في خاطره.

لا أدري كيف أبدأ الكلام، لأنني خائفٌ جداً من ردود أفعالك، لكنني لم أعد أحتمل السكوت، ولم أعتد أن

أُظهر للناس ما لا أبطن في داخلي، لذلك قررت أن أعترف لكِ بما يجول في خاطري، وآمل من الرب أن تتقبلي كلماتي دون أن تغضبي، و أن تعتبريها قد مَرَّت مرور الكرام في خاطركِ، وكأن شيءً لم يكن في حال لم تعجبك الكلمات.

يا أميرة القلب العجوز الذي شاخت سنينه وسرقت منه كل الآمال، ظننت أنني غداً سأموت وأُلاقي حبيبتي التي فقدتها، ففي فردوس الجنة تنتظرني تلك الحبيبة التي دخلت السجن لأجلي، وبقيتُ أنا انتظرها عشر سنوات لأتزوجها، على أمل أن تنجب لي طفلاً يحمل اسمي ويرث أملاكي، ولكن سنوات السجن المريرة التي أمضتها في زنزاناته اللعينة كانت كفيلة أن تفرقنا إلى حين لم تعد سنوات عمرها تسمح لها بالإنجاب، فقررنا بعدها أنا وهي أن نبني داراً للأيتام حتى نعوض ما كُنا نتمناه بأطفال يفقدون آبائهم وأمهاتهم، ولكن أيضاً يدُ الغدر قتلتها وقتلت كل أحلامنا معها، وبقيت أنا وحدي اتمنى أن يأتي جلادٌ يضعني على مقصلتهِ، فيقطع رأسي حتى ألقى الحبيبة التي أوصتني ودمها يسيل على ركبتي وهي تلفظ

أنفاسها الأخيرة؛ أن أتزوج من امرأةٍ أُنجبُ منها فتاةً وأُسميها باسمها، فكانت تزورني بعد موتها في حلمي بشكل يومي تأمرني أن أُنفِّذَ وصيتها الأخيرة، لكنني لم أكن أُخبرُ أحداً بهذا العذاب الذي أعيشه بعد موتها حتى لا يتهمني بالجنون.

كانت تزورني بشكلٍ يومي كلما أغمضت عيناي، لذا بدأتُ أُسافر في بقاع الدنيا، و أتنقلُ بين نساء العالم، ولكنني و بعد مرور عقدٍ ونيفٍ لم أستطع أن أجد تلك الامرأة التي قد تستحقُ أن تكون زوجتي، وتحمل طفلي والذي ستكون لهُ ثروتي بعد وفاتي.

إلى أن دخلتُ نادي (الدي آند نايت) ووجدتُكِ أمام النادي، شعرت أنكِ أنت من كنت أبحث عنها طوال هذه السنين، فمباشرة اتجهت إلى (غريغوري) وسألته عنكِ، فأخبرني أنك متزوجة، فغضبت جداً من قدري الذي لا يسمح لحظي في النساء أن يقف إلى جانبي و لو مرةً واحدةً.

فأول مرَّة رأيتك فيها شعرت أنك مليكة أحلامي أرسلها الربُّ لي من سمائه، وأعطاه أجمل صورة، وكأنه القمر رفع على سطحه علم من الشعر الأشقر بلون أشعة الشمس.

(كاتيوشا) أنا رجلٌ بدأت أدخل في سِنِّ الكِبر وأصبح القبر قريباً مني، فأنا مثلي مثل كل من سبقني وسيلحقني سأرحل يوماً من الأيام، ولن آخذ دوري ودور غيري، فإنني عندما سأرحل سأترك خلفي مالاً وثروة لا أدري لمن ستكون من بعدي، لأنني لم أُرزق بطفلٍ يرثُ من بعدي أرزاقي، فأنا أؤمن أن هذا نصيبي وقدري ولكن الأمل يرتادني أحياناً بأنه لا يزال هناك مُتسعٌ من الوقت لذلك، وعندما رأيتكِ، رأيت الحكمة تتصارع مع القدر وتقول لي: أنه من الممكن أن تكوني أنتِ من ستحملين هذا الطفل، (كاتيوشا) أرجوكِ لا تغضبي من كلماتي، ولكن أرجو منك أن تشعري بمأساتي وهذا يكفيني.

لكِ مني كل الاحترام والتقدير

المحب لكِ دائماً (قنسطنطين).

لم تفهم (كاتيوشا) ما كانت تقرأه، فهل هي تقرأ شيء من الواقع أم أنهُ خيالٌ تراهُ أمامها، هل هي تقرأ ما تقرأه أم أنها تحلم؟

أخذت تعصر وجهها الملائكي بكفيها، عَلَّها تصحو من هذا الذي تقرأه ولا تعلم هل هو حقيقة أم خيال، إلى أن رنَّ

جرس الهاتف، فهرعت إليه وحرقةُ الحُزن والارتباك في حنجرتها، حيث حينها شعرت أنها ليست في حلم، وأنه حقيقة ما كانت تقرأه في الرسالة التي كانت بين يديها.

كانت من يتصل بها (نتالي) و كانت تسأل (كاتيوشا) عن سير العمل، فأخبرتها بكل التفاصيل، ثم سألتها (كاتيوشا):

-كيف حال (قنسطنطين) يا (نتالي) ؟

فردَّت نتالي بتعجب:

-أنت تسألين عن (قنسطنطين) أم (سيرغي)؟

فقالت:

-لا، أسأل عن (قنسطنطين)، فالعم (غريغوري) أخبرني عن حال (سيرغي) وطمئنني عليه، ولكنني رأيت كابوساً، رأيت فيه أن (قنسطنطين) يبكي كالطفل الصغير.

فقالت (نتالي):

-أتدرين يا (كاتيوشا) إنه منذ أن وصل، منذ عشرة أيام، وهو يحبس نفسهُ بغرفته، و كلما سألته: ماذا بك؟ يقول لي: لا شيء أنا بخير.

-أنه رجل طيب جداً، وأنا بصراحة خائفةٌ عليه جداً، فهو من أروع الأشخاص الذين رأيتهم في حياتي، لا أدري لماذا القدر دائماً يختار الطيبين ليختبر طيبتهم في أشياءٍ قاسيةٍ، لا أدري لماذا يبكي الذين ولدوا ليصنعوا البسمة على شفاه البؤساء.

-هل بدأ موقفك يا (كاتيوشا) اتجاه (قنسطنطين) يتغير؟

-لا يا (نتالي) أبداً ليس كما تفكرين، أنه مُجردُ خوفٍ على صديقٍ كنت أُمضي معهُ أغلب أوقاتي، ولم أجد منه سوى كل شيء طيب.

كان (قنسطنطين) قد كتب رسالته هذه قبل سفره إلى لندن بساعات، حيثُ قرر أن يكتب هذه الرسالة في ليلة كانت كل هموم الدنيا تتصبُّ على رأسهِ، وبكى كالطفل في حمّامِهِ يُخبئ دمعاته خلف بابه كي لا يراها أحد، فإنَّ (قنسطنطين) كان يعمل طوال الوقت ليسعد ويلبي رغبات من هم بحاجةٍ إليه، ولم يكن يطلب من أحد شيء، ولا يشكي همومهُ لأحد، فلم يكن يشتكي كربته لأحدٍ سوى وحدته.

الفصل الخامس و العشرين:

كانت (نتالي) تستمع إلى كلمات الطبيب العجوز الذي وصل مع (قنسطنطين) إلى لندن، وهو يشرح للأطباء عن حالة (سيرغي) و التي كان يتابعها منذ زمن، ولكنها لم تكن تفهم ما يعنيه تماماً بكلماته التي كان يوجه بها الطبيب المشرف على (سيرغي)، والذي كان من أحد تلاميذه في كلية الطب:

-هناك نظرية لي عارضني فيها جُلُّ الأطباء، ومفادها أنه هناك علاقةٌ وطيدةٌ ما بين العقل الباطن، وجهاز المناعة الذي يُحارب أيِّ شيءٍ غريبٍ في جسم الإنسان، ويثبت هذا تعلق الإنسان بقوميته وأرضه، وهكذا إنني أرى أن العلاقة ما بين العقل وجهاز المناعة عند الإنسان هي علاقة ارتباط مُتبادل تُفسِّر ارتباط الإنسان بأرضه .

كانت (نتالي) تَستمعُ لما يقولهُ هذا الطبيب العجوز، وقد بدأ عليها التوتر جراء ما سمعته عن حالة (سيرغي)، وما من الممكن أن يفعلوه من تجارُبٍ حتى يَتمَّ الشِّفاء.

فأخذت تصرخ وتقول:

- يا أيها البرفسور هل تريد مني أن أترككم تتصرفون

مع زوجي وكأنه فأر تجارب في مُختبراتكم؟ وهل أتيتم إلى هنا، وقطعتم كل هذه المسافات، حتى تضعوه في جُملةٍ من اختباراتٍ لا تعلمون نتائجها.

أخذت (نتالي) تصرخُ وتبكي في غرفة الأطباء حتى أنها سقطت على الأرض، وكأنها دخلت في غيبوبة، أسرع الأطباء إليها وحملوها إلى غرفة الطوارئ ليتم الاهتمام بها هُناك.

تقدم الطبيب رئيس القسم من الطبيب العجوز وسأله:

-يا أيها البرفسور، أنا أيضا أتساءل مثل (نتالي) زوجة المريض، كيف لنا أن نضعهُ بين اختباراتٍ من الممكن أن تنعكس على حالتهِ سلباً، فنحن لا نعلم نتيجة الاختبارات بشكلٍ كاملٍ.

قاطع الحديث أثنائها (قنسطنطين) وقال:

- يا أيها السَّيد إن هذا الطبيب هو من علمك أصول مهنة الطب في الجامعة، وهو قد أنقذ الكثيرين من الموت المحتم، فلا أظن أنه لا يعي ما يقول، ولا يعرف نتائجه، بعدما قطع كل هذه المسافات لأجل (سيرغي).

أكمل الطبيب العجوز كلامه وهو يقول:

-في هذا الصندوق كل قصة (سيرغي) مع مرضه، فاقرأ ما فيها من مضمون لحالته الصحية وما كان يعاني في الفترة السَّابقة ستعلم بعدها ما أرنو إليه.

أما الآن فعلينا أن نضعه في غيبوبةٍ ليستيقظ منها فنكون قد بدئنا بعلاجه.

فأجابه الطبيب:

-لكن القانون الإنكليزي لا يسمح لنا بهذا، ولا حتى شركات التأمين، يجب أن يكون هُناك سببٌ مُقنعٌ للقيام بهذا الإجراء.

فقال العجوز:

-اسمع يا أيها الطبيب فمن الممكن أن يموت في أي لحظة من الآن، فأنتم لا تفعلون شيء سوى أن تعطوه المهدئات، وهذا علاج مؤقت ونتائجه سلبية، وقد تتفاعل هذه المهدئات مع جسمه ويعتاد عليها، ولا تكونوا قد فعلتم شيئاً سوى أنَّكم تكونوا قد وضعتموه في حالة إدمانٍ على هذه المهدئات.

فسأله الطبيب:

- وما العمل برأيك؟

-أن كنت تثق بي، وهذا ما يجب أن يكون، فعلينا أن نخرجهُ من المشفى ونضعه في بيتٍ كما ولو أنه مشفى صغير، فأنَّ وضعهُ المادي يسمح له ولنا أن نقوم بذلك.

فأجاب الطبيب:

-وكيف لا أثق بك يا مُعلمي؟ وأنت من علمتني كيف أعشق مهنتي، فلولاك لما استقبلني الإنكليز حتى أعمل لديهم، فكل كتبك ونظرياتك يقرؤها علماء النفس في لندن، ولكنني أقلق من شأن هذه التجربة، فإنني أخاف أن تفشل لا سمح الله، وحينها تخسر كل من يحبونك، ويثقون بك، ويقرؤون كتبك، وخاصةً أنك الآن في عقر دار الإنكليز، وهم يراقبون كل تحركاتك، حتى يتعلموا من نظرياتك في مهنة الطب النفسي، وعذراً منك يا معلمي، حتى أنا لست موافقاً على ما تنوي فعله، ولكن حبي لك، وإيماني بعلمك، يجعلاني أكون معك في كل ما تنوي فعله.

ضحك البرفسور العجوز وقال:

- حتى أنا إذا لم أستطع أن أعيد (سيرغي) إلى ماضيه،

وأربطه بحاضره، ليكمل مسيرتهُ بأمان، سأكون غير راضٍ عن نفسي.

ثم أكمل العجوز قوله:

- أما الآن سأخرج لأطمئن على حالة (نتالي) ثم سأذهب مع صديقٍ لي لنرفِّهَ عن نفسنا قليلاً، أما أنت فاذهب وافتح السجلات التي كُتبت عن (سيرغي)، واقرأها بتمعن حتى تعرف أكثر عن وضع المريض الذي تقوم بالأشراف على حالتهِ الصحية.

كان هذا الصديق للبروفسور العجوز هو سائق (سيرغي) فقد أصبح صديقاً حميماً للطبيب العجوز عبر عشرِ سنواتٍ مضت كان يعمل خلالها مع (سيرغي)، حيث كان يخبر البروفسور عن كُلِّ تصرفاته وتحرُّكاته، فكأن البروفسور كان مديراً للمخابرات و السائق عميله، حيث كان يُخبره كل شيء عن (سيرغي) حتى يبقى هذا الطبيب يُراقب عن كثب وضع مريضه.

بقي (قنسطنطين) طوال الليل بجانب (نتالي) التي صَحَت من غيبوبتها، ولكنها كانت في حالةٍ نفسيةٍ صعبةٍ جداً، حيث قالت لـ(قنسطنطين):

- اعذرني يا صديقي إنني أُحمِّلُكَ كُلَّ هذه المشقة، فأنا متعبة جداً، فبعد تعاسة حملتها في قلبي لأكثر من خمس وعشرين سنة أتى (سيرغي) وطردها عني، والآن أرى من طردها وكأنهُ يُريدُ أن يرحل ويتركني ببساطة، فالموت أرحم عليَّ من أن أعيش لحظةً بعيدةً عن (سيرغي).

لقد حسبت نفسي أن السعادة أتتها إلى غير رجعة، ولكنني اليوم أشعر أن المستقبل يحمل لي في طياتهِ تعاسةً أشد قسوةً من التي كنت فيها.

هذه الأثناء دخلت الغرفة ممرضةٌ وأخبرتهما أن (سيرغي) يسأل عن (نتالي).

وعلى الفور أحضر لها (قنسطنطين) كأساً من الماء وقال لها:

-يا نتالي أرجوكِ تماسكي، فهذا ليس وقت الاستسلام، فعلينا أن نكون أقوياء لأجل (سيرغي) فلا يجب أن يرى أحداً منا ضعيفاً، فهذا قد يزيد من حزنه ويؤجل في عملية شفاءه.

لقد كان (سيرغي) يرتاح كثيراً عندما يرى (نتالي)، و بالأخص عندما لم يكن يشعر بالألم، أو لايكون تحت

تأثير المهدئات.

بينما كان الطبيب يُراجع ويقرأ ما كتب عن حالة (سيرغي) كان البرفسور قد عاد من جلسته مع سائق (سيرغي) و توجَّهَ إلى المشفى حيث يقيم (سيرغي).

بدأ صوت (سيرغي) من جديد بالصراخ والعويل، حيث دخل البرفسور مباشرةً إليه وأخذ يقول له:

-يا صديقي (سيرغي) نحن قد أتينا إليك، من روسيا إلى لندن، حتى نساعدك، فيجب أن تساعدنا وتساعد نفسك حتى تعود الى الحياة التي اعتادت أيامها على بسمتك الرائعة.

فصرخ (سيرغي) بوجه البرفسور قائلاً:

-أنا أملك الحياة، فمن يملك (نتالي) يملك الحياة، فأنا أكثر البشر جدارةً بالحياة.

فأجابه البرفسور:

-هذا كلام جيد يا صديقي، لذلك أريدك أن تدخل معي في غيبوبة، لندخل أنا وأنت في عالم آخر لا يوجد فيه سوى (نتالي) التي تملكها أنت دون غيرك.

وأعدك يا صديقي أن أُعيد لك ذاتك، ولا أريد منك سوى

أن تثق بي كما كُنتَ في السنين السابقة.

أغمض (سيرغي) عينيه وكان لا يزال البرفسور العجوز يحاوره، وكأنه دخل الغيبوبة بإرادته، ومن دون أن يحرضه الطبيب على ذلك.

دخلت الممرضة بعد ما أخذت الأمر من البرفسور إلى الغرفة وبدأت تصبغ جسم (سيرغي) بنوع من التراب الأسود ذي الرائحة الكريهة، وكان هذا نوعاً من أنواع المخدر، فيغفو من يصبغ به جسمه.

كانت تلك الممرضة التايلاندية تحرك أناملها على جسد (سيرغي) بينما أخذ البرفسور يجسُّ النبض ويراقب الضغط الى أن أشارَ جِهاز فحص الضغط إلى أدنى درجة، حيثُ بدأ بالعدِّ التنازلي من رقم 100 حتى رقم الواحد ولكن (سيرغي) دخل في غيبوبة قبل أن يصل جهاز العد التنازلي إلى الثامنين فغدى في سباتهِ كالميتِ في تابوتهِ.

ثم أشار البرفسور للمرضة برفع أناملها عن جسد (سيرغي) وأمرها بالخروج من الغرفة بهدوءٍ شديدٍ.

ثم قام البرفسور بإطفاءِ الأضواءِ، وإغلاقِ الستائر على النوافذ ، وسلَّطَ فوقَ رأس المريض ضوء خفيف.

كان البرفسور قلقاً بعض الشيء من دخول (سيرغي) في غيبوبة، ذلك لأن القانون الإنكليزي يمنع مثل تلك الأساليب والأدوية في الطب، لما لها من تأثيراتٍ جانبية على المرضى، وأكثر ما يقلق الأطباء في مثل هذه الأحوال هو دخول المريض في حالةِ سُباتٍ دائم ، ولكن البرفسور أصرَّ أن يدخل هذه التجربة ويتحمل المسؤولية على عاتقه .

أخذ يُراقب حالة سبات (سيرغي) بكُلِّ عنايةٍ وكان القلق قد بدأ يظهر عليه لولا سماعه صوت (سيرغي)، وهو في سباته يقول:

-ما أجمل هذه النجوم أشعر وكأنني أَطير يا (نتالي).

كان (سيرغي) في مرضه قد نسي كل شيء عن حياته حتى اسمه، إلا (نتالي) كانت في ذاكرته ثابتة لا تفارقه نهائياً، ورغم مرضه كان متمسكاً بها ولا يريد أن يُسيطر عليه مرضه حتى ينساها، فكان يذكر اسمها دائماً لأنهُ لا يريد أن تترك ذاكرته.

كان فرح البرفسور كبيراً حين سماعه صوت (سيرغي) يتكلم بعد دخوله في الغيبوبة المصطنعة لأنه كان يقول أن هذه إشارةً إلى أن (سيرغي) قد بدأ يستجيب للعلاج.

كان البروفسور العجوز كلما سمع صوت (سيرغي) يهذي يبدأ معه بالحوار، ويحاوره كما لو أنَّهُ في كامل قواه ويعي ما يقول، حيث أخذ يقول له:

-يا صديقي (سيرغي) أنا وأنت الآن نمشي في إحدى الحدائق الجميلة وتُنيرُ لنا نجوم الليل طريقنا بين أشجار الحديقة.

فأجابه (سيرغي):

-لا أنا لست في الحديقة أنا الآن في ميترو الأنفاق، وأصعد درجه المتحرك.

فقال له البرفسور:

-أظنُّ أنَّكَ ستقصُّ على سمعي حكايتك منذ هذه اللحظة.

فأجابه (سيرغي):

-نعم لأن حياتي بدأت منذ هذه اللحظة.

فسأله البرفسور:

-كم هو عمرك؟

فأجابه:

-اثنان وعشرون عاماً.

مضت عشر دقائق على حديث البرفسور و (سيرغي) خَيَّمَ خلالها الصمت.

ثم سأله البرفسور:

-هل تريد أن تَقُصَّ لي ما تخبرك به ذاكرتك يا (سيرغي)؟

فقال له (سيرغي) وهو يهذي:

-انتظر فإنني لا زلت أبحث عنها، مرحباً ما اسمُكِ يا جميلة؟

فسأله البرفسور:

-مع من تتكلم في هذه اللحظة يا (سيرغي)؟

فأخذ (سيرغي) يُكمل كلامه، وكأنهُ لم يسمع ماذا يقول البرفسور.

-كانت هذه أول ليلة لا أعرفُ بها طعم النوم حين شاهدتها تهبط على الدرج الكهربائي، فعبرت كالسحاب من جانبي، فسحرتني، وجعلتني أركضُ ورائها خوفاً من أن تضيع مني، فمرحباً يا كوكباً هربَ من سمائهِ ليمشي على الأرض.

ثم تجدد الصمت من جديد أيضاً أكثر من ربع ساعة ثم

سأل البرفسور من جديد:

-من معك الآن يا (سيرغي)؟

فقال له:

-من معي هي (كسينيا).

-هل تستطيع أن تصفها لي ؟

-أنها نجمٌ ساطع يبهر أنظار البشر.

فقال له البرفسور:

- إذا أين أنت الآن يا (سيرغي) ؟

فأجابه:

-أنا لا أزال بين ضجيج ميترو الأنفاق، وسحر عينيها وأُمسك بيدها أريد الأن أن أمنعها من صعود عربة الميترو.

ثم أعاد البرفسور عليه السؤال:

- ومن هي التي تمسك بيدها؟

-إنها (كسينيا)، خرجت معها لنشرب القهوة أمام محطة الميترو.

فقال البرفسور:

-ولا تزال معها الآن ؟

فقال له:

-نعم أنا معها وكل العمر سأبقى معها.

ثم عاد الصمت من جديد، وبدأ الاضطراب والتعرق يبدو على وجه (سيرغي).

ثم عاد البرفسور يطرح أسئلته بهمساتٍ خفيفةٍ:

- يا (سيرغي) إلى أين ابتعدت عني؟

فعاد بعد نصف ساعة (سيرغي) للكلام وقال:

-ها هي تجلس بجانبي، تزينها حلتها البيضاء، وتحمل بيدها كأس الشمبانيا، وكل المدعوين يرقصون في عرسنا، اليوم أنتِ زوجتي يا أروع امرأةٍ في هذه الدنيا فأقسم لكِ أنه لن يبعدني عنك شيء في هذه الدنيا سوى الموت يا حبيبتي، ويا ليت الموت يأخذني قبل أن يأخذكِ يا حبيبتي.

أطفئ البرفسور الأضواء من جديد وبقي معه في الظلام وكأنه قرر أن يسمع كلمات (سيرغي) فقط و أن لا يسأله عن شيء، فتكلم (سيرغي) بصوتٍ مُضطرب:

-أرجوك يا حبيبتي يجب أن تتخلصي من الجنين فإنه خطر على حياتك فكل الأطباء يقولون هذا.

كلمات (سيرغي) جعلت من البرفسور يتدخل لأنه على ما

يبدوا أن (سيرغي) أصبح يعيد ذاكرته قبل عشر سنوات وكانت هذه أولى خطوات النجاح في علاجه، لذلك يتوجب على الطبيب أن يحرضه فقط على استرجاع السعادة من ذاكرته و أن لا يسمح لذكرياتٍ مؤلمةٍ أن تَمُرَّ في ذاكرته في مراحل علاجهِ الأولى، لأن هذا قد يعود على المريض بنتائجٍ سلبيةٍ قد تفقد كل التقدم الذي تَمَّ تحقيقهُ.

لذا تركهُ البرفسور العجوز من دون أسئلة، لأنه اكتشف أن (سيرغي) يعيد في ذكرياته شيئاً منذُ زمنٍ بعيدٍ، وهذا الشيء يدل على استجابته للعلاج، ولكن الطبيب لا يريد أن يذهب (سيرغي) بعيداً بذاكرته في هذهِ اللحظة، لأنه لا يعلم شيئاً عن خلفياتها، لذلك ترك (سيرغي) وتوجه إلى سائقهِ حتى يأخُذ منهُ بعض المعلومات التي ستفيده في حواره مع (سيرغي) في استعادةِ ذاكرتهِ .

بدأ البرفسور الحديث مع السائق بسؤاله:

-أُريد أن أعرف منك بعض المعلومات، ولكن بشكلٍ دقيقٍ جداً، قل لي كيف تعرفت على (سيرغي) ؟

فقال له:

-كنت أعمل مُهندساً في مجال البترول في إحدى

الشركات، وكنتُ ناجحاً جداً حتى أنني قمت بإضافة بعض التحسينات على معدات الشركة مما ضاعف أرباحها، ولكن لظروف صحية ـ حيث كان حقل النفط الذي اعمل به في منطقة نائية و ذات طقس صعب جداً ـ لم استطع المتابعة في عملي،   وكنت أبحث عن عمل جديد، إلى أن أخبرني أحد أصدقائي أن هناك رجل أعمال بحاجةٍ إلى سائقٍ يعملُ لديه، وأخذني إلى مكتب (سيرغي) فكانت تلك إحدى اللَّحظات السَّعيدة في حياتي، فعندما دخلت مع صديقي غُرفة المكتب، وبدأ صديقي يعرفه علي ويحدثه عن أعمالي السابقة، وما كنتُ قد حققتهُ من نجاحٍ فيها، تقدَّمَ مني (سيرغي) وقال لي:

-يقال إن من سيعمل حارساً شخصياً أو سائقاً لدى أحد الأشخاص يجب أن يكون صديقه، بل و بمثابة الأخ أليس كذلك؟

فقلت له:

-بالتأكيد هذا كلام صحيح.

فابتسم ومدَّ يدهُ، وأمسك يدي بحرارة وقال لي:

-إذاً فلنكن أوفى صديقين.

في هذه اللحظة دخلت امرأة حامل، شاحبة الوجه، وكأن وجهها يسبق سنيِّ عمرها، وعلى الفور تقدم منها (سيرغي) وقال لها:

-أهلا بك يا حبيبتي.

فأجابته بصوتٍ هادئٍ:

-أُسعدت صباحاً يا حبيبي، ولكنني أشعر وكأنني متعبة بعض الشيء.

وما أن سمع (سيرغي) أنها متعبة حتى اتصل مباشرة بالطبيب، واتفقا أن يذهبا إليه، واستدار باتجاهي وقال لي: -بإمكانك أن تبدأ العمل معي من اليوم، هذه مفاتيح السيارة وهيا بنا إلى الطبيب.

وصلنا إلى العيادة، ففتحت لهُ الباب، فخرج من السيارة وأمسك يدها، ثم صعدنا إلى الطابق الثالث فدخلوا العيادة حيث كان ينتظرهما الطبيب الذي كانت المفاجئة بالنسبة لي أنه ليس طبيب أمراض نسائية، وإنما كان طبيباً مُختصّاً بالأمراض القلبية.

انتظرتهما أمام باب العيادة حوالى الساعة ونصف الساعة حيث خرج وكان الغضب على وجهه، وأخذ يقول لها:

-يا حبيبتي ما زال أمامنا متسع من الوقت حتى تتخلصي من الجنين إذا كان هذا الحمل خَطِراً عليكِ كما يقول الطبيب.

فأجابت:

-لا تخف يا (سيرغي) فإنَّ الأطباء جبناء، فأُمي كان بها مرضٌ مثل مرضي، وأيضا حذرها الأطباء من الولادة، وها هي ولدتني وأنا الآن أحمل في أحشائي ولدك، فأنا لن أتخلص من ولدي الذي حصلت عليه من أحب الناس إلى قلبي.

-لو أنني كنت أعلم أنكِ عنيدة إلى هذا الحد، لما جريت لأتعرف عليك في محطة ميترو الأنفاق.

-لو أنَّكَ لم تكن قد عرفتني، فهل كنت ستتزوج امرأة أخرى؟

-لا أظن أنني كنت سأتعرف على غيرك وأتزوجها في حياتي، لأنني لم أكن أريد أن أتزوج أبداً، ولكن هاتان العينان سحرتاني ووضعتاني في سجن الحب.

ثم تبادل معها القبلات، وصعدوا السيارة، وتوجهت بهم إلى المنزل.

فمن هنا بدأت رحلتي مع (سيرغي)، فمنذ اليوم الأول شعرت أنني ارتبطت مع إنسان إلى آخر يوم في حياتي، فمنذ أن أمسك يدي بتلك الحرارة، وطلب مني الأُخوة والصداقة، قررت أن أبقى معه مهما كان الثمن في حياتي.
فبعد ما أن دخل (سيرغي) وزوجته (كسينيا) البيت طلبت من البواب أن يجمعني بكل العاملين في هذا البيت، وحتى الحراس، ثم أخذت كامل المعلومات عنهم، و صنفتها في أرشيفٍ خاصٍ بالأمن، لأطمئن أن الوضع على ما يرام.
في صباح اليوم التالي توجهنا أنا و (سيرغي) إلى المطار برحلة عمل الى العاصمة موسكو.
لم أكن أشعر مُطلقاً أنني موظف لدى (سيرغي) لما كان يحمله في قلبه من طيبٍ وكرمٍ وأخلاقٍ، فكنت أشعر وكأنني شريكٌ لهذا الرجل في أعماله، حيث كنت معه في مفاوضاته مع منافسيه، فهو لم يكن عنيداً أو متشبثاً برأيه، فكنت أسمعه وهو يقول لمنافسيه أنه مستعد أن يتنازل لهم عن جزء من حصته في الأعمال مُقابل أن يتم اقتسام الأعمال في المدينة، و أن يتم الابتعاد عن الحروب التجارية و الصدامات و بالمقابل أن لا يكون هناك

احتكار بل تعاون و تنافس شريف.

رَغم أن البعض كان حذراً من تطبيق مُقترحاته إلا أنهم في النهاية نفذوا الكثير من الاتفاقات ليزداد دخل (سيرغي) ودخل منافسيه أرباحاً مضاعفةً، مما جعلهم يقترحون عليه أن يكون رئيسا للبلدية لما يملكه من فطنة وحبٍّ لأهل البلد.

كان (سيرغي) لا يذهب إلى عمله دون رفقة زوجته الجميلة صاحبة العيون الزرقاء والشعر الأشقر والقامة الطويلة (كسينيا)، علمت لاحقاً أنها قد أتت إلى المدينة مع أمها من قريةٍ صغيرةٍ لا تبعد كثيراً عن مدينة (تشير نوبل) الحزينة، حيث شهدت المنطقة انفجاراً هائلاً لمحطة توليد كهرباء نووية، مما جعل أهلها يتركون بيوتهم ومصالحهم خوفاً من الإصابة بالإشعاعات القاتلة المنتشرة من هذا المفاعل المنكوب، أودت هذه المأساة بحياة الآلاف من السكان المحليين، وكذلك توفى عدد كبير من المنقذين، من تبقى من أهل هذه المدينة خرجوا منها ولكنهم لم يسلموا من الذرات النووية التي حملوها في أجسادهم، والتي سببت لهم أمراض سرطانية جعلتهم

يعانون من المرض سنين عديدة حتى يومنا هذا.

اقترب موعد ولادة زوجة (سيرغي)، وبدلا من دخول الفرحة لقلب (سيرغي) كانت الهموم تأكل رأسه لأن الأطباء أجمعوا أنها لن تستطيع أن تنجو من الولادة، وذلك بسبب مرض القلب، ولم يعطوا نسبةً لنجاح الولادة سوى 10٪ ولكن زوجة (سيرغي) أصرت على الولادة.

و للأسف هذا ما حصل لاحقاً فعند الولادة و بُعيدَ فرحة (سيرغي) بقدوم ابنه بصحةٍ جيدةٍ، أُصيب بأكبرِ صدمةٍ في حياته عندما أعلمه الأطباء أنَّ زوجته لم تستطع تحمل جهد الولادة، وتوقف قلبها رَغم جميع جهودهم بعد نصف ساعة .

أثناء هذا الحديث دخل (قنسطنطين)، والذي أضناه التعب وهو يبحث على منزل من أجل أن ينقلوا إليه (سيرغي) ليكون كمشفى مصغر له بعد دخوله في الغيبوبة، وبعد ما وجد المنزل المناسب ذهب إلى البرفسور وأخبره أنه قد وجد ضالتهم، وكان البرفسور كما ذكر ما زال يستمع إلى قصة (سيرغي) مع زوجته السابقة التي توفيت أثناء ولادتها، حيث من هذا الحدث أمسك برأس الخيط الذي

بدأت منه مأساة (سيرغي).

ذهب البرفسور بعدها إلى الطبيب المشرف على علاج (سيرغي) في لندن، والذي كان لا يزال يقرأ في أرشيف (سيرغي) الطبي الذي أعطاه إياه البرفسور العجوز .

دخل (قنسطنطين) مع البرفسور العجوز إلى مكتب الطبيب، فنهض مباشرةً إليهما و سبقهما بالتحية قائلاً:

-يا معلمي مع أنني لم أصل بعد إلى نهاية أرشيف (سيرغي) الصحي، ولكنني الآن أقول لك بأنني معك في ما تنوي فعله مع (سيرغي) من تجارب، ويجب أن نخرجه إلى المشفى المنزلية، وأنا سأكون تحت تصرفك بكل ما تطلبه مني بخصوص العلاج، ولعلي أُضيف إلى رصيدي الطبي بعضاً من الخبرة التي سآخذها منك في هذه الحالة المرضية الغريبة.

فأجابه البرفسور:

-وما زلت تظنها تجارب؟! إن هذه من أصعب الحالات التي من الممكن أن تمر على طبيبٍ في هذا الاختصاص، ولن أستطيع أن أخبرك المزيد، فلولا أنني لم أخالف القوانين في (لندن) لكان (سيرغي) الآن في عِداد الأموات.

ثم دخلت (نتالي) الغرفة، وكانت قد سمعت الحديث الذي كان يدور بين الأطباء عن حبيبها وحالته، فتوجهت إلى البرفسور بالسؤال:

-ألهذهِ الدرجة حالته صعبة، هل هذا يعني أنه لن يبقى على قيد الحياة؟

أجابها البرفسور قائلاً:

-يا بنيتي إننا أمام حالةٍ صعبة، ولكنها ليست معدومة الأمل، كما أنني أريد أن أخبركِ أنك أنتِ من سيكون له الدور الأكبر في شفاء (سيرغي) لأنني متأكد من أن حبهُ لكِ وتعلقهُ بكِ سيعيدهُ إلى حياته الطبيعية.

فقالت (نتالي):

-أنا جاهزة لكُلِّ شيء ولكن كيف؟

فأجابها البرفسور:

-يا بنيتي إن (سيرغي) قد وجد كل ما فقده في حياته بكِ أنتِ، حيثُ أنكِ تشبهين كثيراً زوجته السابقة في كل ما كانت تملكه من خصالٍ جميلةٍ كان يتعلق بها، لذا سيكون لكِ الدور الأكبر في مهمة العلاج...

فأجابت:

-وكيف هذا وهل سأعيش في جسد امرأةٍ أُخرى؟
فقال لها البرفسور:
-على العكس تماماً، نحن نريد منك أن تبقي (نتالي) كما أنتِ في كل شيء من صفاتك، حتى يقتنع أن زوجته رحلت إلى غير رجعة، وأنَّ الحياة مستمرة رغم كل مآسيها، لأنه حاول الانتحار أكثر من مرة، لولا سائقه الذي كان له في المرصاد في كل محاولاته، ولم يكن يدع عيناه تغفلان عنه ولا لحظة، إلى حين تزوجك واستقرت حالته، وهذا يعني أنك كنت حالةً إيجابيةً في حياته.
أخذ الحديث بين البرفسور و(نتالي) بعض الوقت، ولم يكد هذا الحديث ينتهي حتى دخل (قنسطنطين) و قال لنتالي:
-إن وجودنا هنا الآن لا يفيد، لنترك الأطباء يخططون لما سيكون من مراحل العلاج وكيفية نقله إلى المنزل الذي استأجرناه ليكون مشفى صغيرة لـ(سيرغي)، وتعالي معي أنتِ وسائق (سيرغي) حتى نذهب ونطَّلِعَ على هذه المدينة، ونسترح قليلاً من أجواء المستشفيات، لكي نستطيع أن

نفكر بشكلٍ صحيحٍ، ونخطط ما سنفعل، ونحتسب لما تخبئه الأيام لنا.

أثناء طريقهم سألت (نتالي) سائق (سيرغي):

-وهل كانت وظيفتك سائقاً لـ(سيرغي) فقط ؟

فأجابها:

-كلا فأنا كنت المسؤول الأول عن أمنه الشخصي، فرجال الأعمال لهم أسرار وكنت أنا صاحب أسراره، واستطعت أن أشاركه في كل همومهِ وأحميهِ ما استطعت من الذين يتربصون به، ولكنني لم أستطع أن أحميه من صفعات القدر الأعمى الذي كان يتربص به.

وصل (قنسطنطين) ونتالي والسائق أحد المقاهي في المدينة وأخذوا يستمعون لما كان يقول هذا السائق عن حياة (سيرغي) ويسألونه كما لو كان في تحقيق.

فأخذ يقول:

-يوم رحلت زوجة (سيرغي) أخذت معها سعادة وبسمة (سيرغي)، ولم يكن هُناك من يؤنس كربته سوى ولده الرضيع الذي كان يمضي كل وقته معه، فكان يؤنس أوجاعه بالقرب منه، يملئ كل أوقاتِ فراغهِ معهُ، وهو

يلاعبه، وعندما دخل الطفل سنته الثالثة توجه به في زيارة لأول مرة إلى قبرِ أُمهِ، والتي أصبح يوم وفاتها هو عيد ميلاد الطفل الجميل (سلافكا)، يومها غفى الطفل على يده وبقيت أنا وهو، حيث أخذ يكلمني لأول مرة عن أحاسيسه حيث قال لي: يا صاحبي هل رأيت إنساناً تُبكيه فرحته؟ أنا إنسان يضحك وكلي أحزان، ولكن هذا الملاك الذي أهدتني إياه حبيبتي، كلما نظرت إليه أتذكر (كيسينا) فتحضر في عيني الدموع، ثم أنظر إليه بعين أخرى فتغلب ابتسامتي دمعتي.

أصبحت أرى الدموع أصدق وأرحم من الصمت، أشعر أحياناً أن كل ما أبنيه وهم في خيالي، فأنا أعيش وأنا قلقٌ مما يخفيهِ لي هذا الزمن، فإن العيون التي لطالما تمعنت بها وفرحت بها، قد زرعت الحزن في داخلي كل العمر.

فقد أدمنت حبها وها أنا الآن مُدمنٌ على مرافقة ولدي أينما ذهبت، فأنا لا أريد أن ألهو عنهُ للحظة، لأنني فقدت الثقة في دائرة الأيام التي سرقت مني أُمه.

فسألت نتالي:

-وهل كان يمضي أيامه كلها مع الطفل وهل حقاً لم

يكن له علاقة مع إحدى النساء ليتزوجها، وتساعده في تربية الطفل؟

فأجابها السائق:

-كنت الوحيد الذي يسمح له أن يبقى مع الطفل إذا اضطر (سيرغي) لعمل ما، ولا يستطيع أن يصطحب الطفل معه، أما بالنسبة للنساء فكانت الكثيرات يحاولن إغرائه بعد وفاة زوجتهِ ويتمنوا أن يتزوجهن، ولكنه أبى الزواج بعد وفاة زوجتهِ، وكان يقول لأكثر النساء أنه متزوج وزوجته حامل، لأنه لم يكن يريد أن يعيش الطفل مع امرأةٍ غير أمه.

كان يعد الأيام بانتظار أن يموت و يلتقي حبيبته، حتى أنني قد تجرأتُ حينها وقلت له: يا سيدي ما رأيك أن تذهب لزيارة أحد الأطباء النفسيين، علَّهم يساعدونك بالخروج من حالتك النفسية فأجابني: وهل تظن أن ذكرى الحبيبة مرض يجب أن أتخلص منه؟ فإذا كانت ذكراها مرض يقضي على حياتي، فأنا مستعدٌ لأعيش مع هذا المرض طوال عمري المتبقي.

يومها علمت أن (سيرغي) إنسان ميت ولكنه يتحرك،

يعجِّلُ في عقارب الساعة حتى يلحق بـ(كسينيا) زوجته الراحلة، وأنه فقط هذا الطفل من يجعله يتغلب على يأسه في الحياة.

توجهت يوماً مع (سيرغي) لشراءِ هديةٍ لولدهِ في عيد ميلاده السادس، وكان قد طلب منه الطفل (سلافكا) لُعبة الرجل الآلي الذي يقوم بجمع المكعبات البلاستيكية من أرض الغرفة، والتي كانت جدرانها وأرضها وسقفها تملئها الهدايا والألعاب، فقد رُبِّيَ هذا الطفل في أجواءٍ مُتميزةٍ، حيث قِلَّةٌ من الأطفال حازت على هكذا اهتمام من أهلها، فكل ما كان يطلبه (سلافكا) الصغير يُلبى في التو.

خرجنا أنا و (سيرغي) و (سلافكا) الصَّغير من متجر الألعاب، وكُنا قد اشترينا له كل ما اختاره من المتجر كهدايا لعيدِ ميلادهِ، ثم توجهنا إلى مَقرِّ العمل، ولكنَّ الصغير يومها أَصرَّ على أبيه أن يذهب به إلى مدرسة تعلم السِّباحة، وهي مدرسةٌ فيها مَسبحٌ مُغلق كان يتدرب بها (سلافكا) الصَّغير على السباحة منذ أن كان في الثالثة من عمره، فلا أعلم يومها لماذا القدر جعل (سيرغي) يطلب

مني أن أذهب معه إلى مدرسة السباحة وحدي، ريثما يقوم هو بتجهير احتفال المساء بعيد ميلاد الصغير.

ذهبت مع الصغير إلى المسبح، ونحن في الطريق أخذ يسألني الصغير عن السبب الذي منع والده من الحضور معه، وأنه يريد أن يكون والده معه، فقلت له:

-إن والدك قد ذهب ليقوم بتحضير الحفل الذي سيقام مساء اليوم بمناسبة عيد ميلادك.

سننتهي من السباحة ونذهب إليه في العمل، وثم نبدأ الاحتفال بعيد ميلادك السعيد.

وصلنا الى مقرِّ مدرسة السباحة، ودخلنا غرفة تبديل الملابس، سلمته لمدربته المشرفة بذلك اليوم على الأطفال المتدربين، ليرمي لي قبلةً رقيقةً عَبْرَ الهواء وهو يدخل قسم السباحة.

أما أنا فلم تكن قوانين هذه المدرسة تسمح بدخول المرافقين مع الأطفال، لذلك جلست في غرفة الانتظار، وحملت كتابي أقرأ فيه ريثما ينتهي الصغير من درس السباحة.

وبعد ساعة من الانتظار لاحظت تحركاً غريباً في القاعة،

ثم رأيت أفراد الطاقم الطبي في المدرسة يركضون إلى الجهة المتواجدة بها بركة السباحة، وبعد هذا التحرك الغريب وصل طاقم من الأطباء يحملون جهاز إنعاش، مثل الذي كان في غرفة (كيسينيا) زوجة (سيرغي) ساعة وفاتها.

بدأتُ أسمع خبراً أن هناك طفلاً قد غرق في البركة، ولم يخطر في بالي أن يكون هذا الطفل هو (سلافكا) لأن مدربهُ معهُ، و(سلافكا) الصغير قد أصبح يجيد السباحة بشكلٍ جيدٍ، ولكن ما جعلني اضطرب هو أن جميع الأطفال قد بدأوا يخرجون من البركة، ولم أرَ (سلافكا) قد خرج بعد، فبدأت بالسؤال: أين (سلافكا)؟ من منكم رأى (سلافكا)؟ ولكن صوت المذياع قد أوقف كل تساؤلاتي حينما سمعتهم يذيعون اسمي، ويطلبون مني أن أحضر إلى غرفة مدير المدرسة.

دخلت على الفور الغرفة، حيث رأيت على شاشة المراقبة (سلافكا) الصغير وكل طاقم الإنقاذ والأطباء قد التفوا حوله و معهم بعض رجال الأمن.

وكان الخبر الصاعقة أن الصغير (سلافكا) قد فارقَ

الحياة، ولكن ليس بسبب الغرق، ولكنه موت فُجائي أثبتت التحاليل أنه كان قد ولد ومعه مرض اسمهُ (تداعيات تشيرنوبل)، هذا المرض الذي تَكوَّنَ بسبب تفجير (تشير نوبل) وحصد مئات الأطفال ومازال يحصد إلى تاريخنا هذا، لأنه يصيب الأطفال منذ سِنِّ الولادة حتى سِنِّ العاشرة حيث يكون الحد الأقصى لهذا المرض، ولا يُكتشف إلا حين الوفاة.

فكانت هذه صدمة (سيرغي) الثانية في حياته، حيث أن هذا التاريخ وكأنَّهُ كان يرافق (سيرغي) ويُجهِّزَ لهُ المعاناة، حيث في يوم ولادة (سلافكا) كانت وفاة (كسينيا) زوجته، وكذلك توفى الولد في هذا اليوم، ومنذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا و (سيرغي) يعيش تحت رحمة الأطباء والدواء .

لم أستطع أن أُخبئَ بُكائي حين اتصلتُ به ونقلت له الحدث، لم يحتمل سماع الخبر، فرمى بنفسه من الطابق الرابع وبأعجوبةٍ بقي على قيد الحياة .

فأصبحت أتساءل: كيف لهذا الرجل أن يستمر في هذه الحياة، وهو يحمل كل هذه المعاناة في جوفه حيث أن هذا

الطفل كان من يُنسيه ألمه في وفاة من يحب، ليصبح الألم أشد وأصعب.

و هكذا أمسى (سيرغي) في المشفى يتمُّ عِلاجهُ من آثار محاولة الانتحار بالإضافة إلى الصدمة النفسية، و قد فقد جزءاً كبيراً من ذاكرتهِ على إثر هذه الحادثة، فقمت أنا بتجهيز مراسم الدفن للولد، حيث شارك كبار المسؤولين في المنطقة و جمهور غفير من المعارف والأصدقاء وحتى الناس العاديين بالجنازة، حيث كانت في تلك الفترة هذه الفاجعة حديث البلد لما تحمله من حزن ومآسي في طياتها.

انفجرت (نتالي) بالبكاء لسماعِ قصةِ (سيرغي) وحتى عينا (قنسطنطين) قد تبللتا بالدموع.

حينها أخذت (نتالي) تقول:

-لو حمل هذا الحزن جبلٌ فسوف ينهار، فهل من الممكن أن يصدق العقل أن (سيرغي) الذي يحمل كل هذهِ السعادة في قلبه ويعطيها للبشر أن يكون في داخله كل هذه المعاناة والحسرة، فكيف يستبدلها بسعادةٍ ينشرها بين الناس، كم أنا محظوظة أني التقيتُكَ يا حبيبي (سيرغي).

الفهرس